

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
المركز الجامعي تيسمسيلت
معهد الآداب و اللغات
قسم اللغة العربية و آدابها
مذكرة تخرج لنيل شهادة الماستر تخصص
أدب قديم موسومة بـ:

دراسة كتاب النثر في
العصر الجاهلي
لهاشم صالح مناع

إشراف الأستاذ:

إعداد الطالبتين:

د. بولعشار مرسلي

• دقيوس آية هبة الله

• ضيف أمينة

السنة الجامعية

2020/2019

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

((رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ

أَمْرًا رَشَدًا))

صدق الله العظيم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

((رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ

أَمْرًا رَشَدًا))

صدق الله العظيم

إهداء

إلى الحبيبة التي حضنتني وآمنت بي
والتي كلما انكسرت وجدتها تلملم شتاتي
إلى من قالت لي ذات يوم أنت ناجحة يا ابنتي
إليك جنتي... أدام الله بقاءك طويلا
إلى أخي وسندي وقوتي...
إلى الجدار الذي كلما حللت بي هشاشة وجدته يحميني
إلى بابا حبيبي الذي لم أهن عليه يوما... دمت شيئا جميلا يزين حياتي
إلى أختي التي مسحت دمعتي ذات مساء وربت على كتفي حين قسى العالم
إلى سموحة حفظك الله درتي.
إلى الحنونة رغم صغرها... رغوذة دام نبض صدرك صغيرتي.
إلى حبيبتَي اللتين أستمد منهما قوتي اللتين ساندتاني أثناء حاجتي
الشقيتان: وصال وأمونة
إلى رفيقات الدرب، ومن كنّ مؤنسات ورفيقات النجاح
إلى الغاليات أخواتي: (هدى، توتة، شيماء، إيمان، أمينة؛ شيماء؛ أماني، أمينة، لمياء)
والغالية رتيل.
إلى نفسي التي ساندتني إلى أن أكمل المشوار، وأناي التي أطمح أن أكوها
إليّ كثير من الثناء
وشكرا

دقيوس آية هبة الله

إهداء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ والصلاة والسلام على أشرف المرسلين:
إلى القلب الحنون، إلى الروح الصبورة، إلى التي رأني قلبها قبل عينيها،
وحضنتني أحشاؤها قبل يديها، إلى الشجرة التي لا تدبل إلى الظل الذي
آوي إليه كل حين والدي الحبيبة أطل الله في عمرها.
إلى سندي في الحياة، إلى راحتي واطمئناني، إلى أبي الغالي أطل الله في عمره،
إلى الذي رباني أحسن تربية لأنال اليوم هذا الفخر
وأصل لما أنا عليه اليوم.
إلى إخوتي وأخواتي : (عبد القادر، عبد الرحمن، سعاد، غنية، سهام).
إلى الغاليات وصديقاتي وأنسي في الحياة شيماء وإيمان.
إلى رفاق دربي (فاطمة، آية، خيرة، قطر الندى).
إلى كل من يعرفني من قريب أو من بعيد.

وشكرا

أمينة

كلمة شكر وتقدير

الحمد لله نحمده كما ينبغي

لجلاله، وعظمة قدره وسلطانه. نحمده حمد عبد

معترف بالعجز والتقصير، ونشكره على ما أعاننا عليه من

قصد وتيسير، والذي ألهمنا الطموح والصبر، والذي أنعم علينا نعمًا

لا نحصيها، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، معلم الناس

الخير، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

إيمانًا منا أنه من لا يشكر الناس لا يشكر الله عز وجل، أتوجه بعميق الشكر

إلى كل الذين ساعدوني ولو بكلمة، بداية من أستاذنا والمشرف

علينا الأستاذ "بولعشار مرسلي" الذي أرهقناه وأتعبنا معنا، فمنه السماح

ومنا الشكر والتقدير.

إلى الأستاذ الفاضل سعيد بوشنافة الذي لم ييخل علينا بعلمه ووقته

وتوجيهاته، فله منا خالص الشكر والتقدير.

والشكر الخاص إلى اللجنة المناقشة على جهدهم المبذول بالاطلاع

على محتوى المذكرة، وتقديمهم النصائح الثمينة حتى تخرج

بأفضل صورة ممكنة.

وأخيرًا نوجه شكرنا وتقديرنا إلى كل من ساندنا

ولو بكلمة تشجيع لإتمام هذه المذكرة

والله ولي التوفيق

مقدمة البحث





باسم الله الذي تتم بنعمته الصالحات، والحمد لله والصلاة والسلام على أشرف الخلق سيدنا مُحَمَّد وعلى آله وصحبه وبعد:

يعد الأدب العربي في العصر الجاهلي أقدم إنتاج أدبي عربي معروف، وقد انتشر الأدب العربي في العصر الجاهلي في منطقة شبه الجزيرة العربية، لذلك تأثر الأدب بالأحوال السياسية والتجارية التي مرت بها الجزيرة العربية، وقد سمي النقاد هذا العصر بعصر ما قبل الإسلام.

وجدير بالذكر أن الأدب العربي في العصر الجاهلي كان أدبا عظيما خالدا، فقد ارتقى الشعر، كما ارتقت الخطابة آنذاك، واحتل الشاعر والخطيب مكانة عظيمة عند الجاهليين حتى بقي شعرهم خالدا، حتى هذه الأيام ندرك أن الشعر العربي باعتباره نموذجا منتقى من هذا التراث كان ميدان بحث مستمر لكبار علمائه الذين ساهموا في التنقيب عنه وإخراجه إلى النور لما لهم فيه من مؤلفات وبحوث ودراسة مستفيضة سواء في أصوله أو أغراضه وغيرها، وبذلك حظي الشعر بالكثير من العناية والاهتمام، والحقيقة أن الشعر لم يكن يمثل ثقافة الأمة العربية وأدبها الأول فحسب، فقد نما إلى جانبه تراث نثري أدبي بقي دون عناية الباحثين إلا قليلا منهم.

نمر إلى النثر الذي يعد أحد قسمي القول؛ فالكلام الأدبي كما هو معروف إما أن يصاغ في قالب الشعر المنظوم وإما في القول المنثور.

إن أصل تسمية المنظوم هي من نظم الدر في العقد وغيره، إما للزينة أو حفاظا له من التشتت والضياع، أما إذا كان الدر منثورا لم يؤمن عليه ولم ينتفع به ومن هنا حصلت عملية تشبيه الكلام الأدبي بالدر والمجهرات وتوهم الناس أن كل منظوم أحسن من كل منثور من جنسه، في معترف العادة وذلك بالنظر إلى سهولة حفظ الكلام المنظوم واستظهاره بسبب الوزن، وانعدام الوزن في الكلام المنثور يجعله عرضة للنسيان والضياع، أما إذا كان الدر منثورا لم يؤمن عليه ولم ينتفع به.

إنه وبالحدِيث عن النثر الجاهلي فإننا لا نريد بذلك النثر العادي الذي يتخاطب به الناس، وإنما المراد به النثر الأدبي والفني الذي يرتقي به صاحبه لينال منزلة في نفس القارئ سواء من حكمة تقال أو قصة تحكى أو مثل يضرب أو خطبة أو رسالة أو وصية تنقل هذا النثر الفني الذي يمكن إعتباره سجلا للعرب في عصوره الأولى و يعتبر مرآة صادقة تعكس البيئات بشتى أنواعها بطريقة عفوية لا خداع فيها.

وقد دفعتنا لاختيار هذا الموضوع أسباب جمّة لعل أبرزها شغفنا بالنثر العربي والرغبة في الإحاطة به، والإحاطة بجوانب الجمال فيه.

بعدها تطرّفنا للمحة خفيفة عن النثر الجاهلي الذي كان موضوع كتابنا المعنون بـ: "النثر في العصر الجاهلي" لمؤلفه "هاشم صالح مناع"، فإنه يتبادر إلى أذهاننا مجموعة من التساؤلات حاولنا الإجابة عنها من خلال بحثنا هذا، لعل أبرزها:

- هل وُفّق صاحب الكتاب في دراسته لموضوع النثر الجاهلي؟

- هل أجاب صالح مناع عن كل الأسئلة التي طرحها؟

إننا بعدما تعمّقنا في صفحات هذا الكتاب ووقفنا عند أقوال الكاتب والملاحظات التي دوّنها تبين لنا أن الكاتب حاول جاهدا الإلمام والإحاطة التامة بكل جوانب موضوع النثر الجاهلي، وذلك بطريقتين: إما إضافة لأمر بسيط جديدة، وإما جامعا لما اجتهد فيه غيره من الكتاب الذين سبقوه أمثال: "شوقي ضيف"، و"عز الدين إسماعيل" وغيرهم.

قسّم الكاتب كتابه إلى ستة فصول مسبوقة بمقدّمة وتمهيد ثم خاتمة، ونحن بعد دراستنا لهذا الكتاب ارتأينا أن يكون عملنا موزعا إلى العناصر الآتية معتمدين على خطة الكتاب في العرض:

- مقدمة.

- مدخل: تعرضنا فيه لسيرة المؤلف وأبرز مؤلفاته، وقدمنا فيه للكتاب ووصفه، ودرسنا العتبات النصية فيه، كما تقصينا أيضا الدواعي التي أدت بالمؤلف إلى تأليف هذا الكتاب.

- عرض وتقديم وهو عبارة عن تلخيص فصول الكتاب الستة ودراساتها، ودراستها بالاستعانة بكتب ومؤلفات أخرى، وهي:

الفصل الأول: الأدب وأقسامه.

الفصل الثاني: الخطابة.

الفصل الثالث: الوصايا.

الفصل الرابع: الرسائل.

الفصل الخامس: الحكم والأمثال.

الفصل السادس: خصائص النثر الجاهلي.

- نقد وتقييم للكتاب، وذلك بمقارنة تطابق العنوان مع المتن، والحكم على الكتاب في الحقل المعرفي، وذكر الانتقادات الموجهة للكاتب والكتاب.

- خاتمة ذيلنا بحثنا هذا وهي حوصلة لما خرجنا به من هذا البحث.

واتبعنا في دراستنا لهذا الكتاب المنهج الوصفي التحليلي.

وكأي بحث علمي الذي يكون محفورا بالمصاعب، فإنه واجهتنا العديد من الصعوبات، لكننا حاولنا تجاوزها، منها: قلة الكتب الدارسة للموضوع، وافتقار موضوع بحثنا للعناية من طرف الباحثين والمستشرقين -منهم من يُفَنِّدُ فكرة وجود نثر جاهلي كطه حسين ومسيو مرسيه، إضافة إلى الظروف الاستثنائية التي مررنا بها هذا العام منعتنا من الالتقاء بالأساتذة والاستفادة من أفكارهم وخبراتهم عن هذا الموضوع.

ومن المراجع التي اعتمدنا عليها في بحثنا:

- تاريخ الأدب العربي لشوقي ضيف.
- الجامع في تاريخ الأدب لحنا الفاخوري.



- النشر الفني لأحمد زكي مبارك.
 - الأدب وفنونه لعز الدين إسماعيل.
 - الأمثال العربية دراسة تاريخية لعبد المجيد قطامس.
- وغيرها من المراجع التي كانت معينا لنا في سبيل إتمام هذا البحث.
وفي الأخير نتقدم بالشكر أولا إلى الله تعالى على ما أنعمه علينا بنور العلم، ثم
الأستاذ المشرف "بولعشار مرسلي" الذي كان مرشدا لنا.

دقيوس آية هبة الله

ضيف أمينة

تيسمست يوم: 2020/06/02.

بِطَاقَتِهِ فَدَيْتُهُ



البطاقة الفنية للكتاب :

المؤلف: هاشم صالح مناع.

المؤلف: النثر في العصر الجاهلي.

رقم الطبعة: الطبعة الأولى.

دار النشر: دار الفكر العربي للطباعة والنشر.

بلد النشر: بيروت، لبنان.

سنة الطبع: 1993م.

حجم الكتاب: متوسط.

عدد الصفحات: 200 صفحة.

التبليغ في العصب الجاهلي

الدكتور هشام صالح مشاع



دار الحكمة العربي
بيروت

مَنْ خَلَّ





المدخل:

1- السيرة الذاتية للكاتب: هاشم صالح مناع وأهم مؤلفاته:

أ- نبذة عن حياته:

هو شخصية عربية عالم عامل متخصص بلغتها، شغف بأهل الموصل وأحبها، قال عنها الكثير وكرر القول مرات عدّة وأصدق القول في التعبير عن شعوره اتجاهها شعرا وكتابة وحديثا.

هو شاعر فلسطيني الأصل أردني الجنسية موصللي الهوى، عراقي الشعور، عربي الهوية، من مواليد عام 1951م، تخرج من المدرسة الفاضلية الثانوية في فلسطين عام 1971م، وحصل على شهادة البكالوريوس لغة عربية من جامعة بيروت عام 1977م، أعقبها بشهادة الماجستير في الأدب الحديث من جامعة عين شمس في القاهرة عام 1981م عن رسالته الموسومة بـ: "القضايا القومية في شعر المرأة الفلسطينية" ثم شهادة الدكتوراه في الأدب العباسي عن رسالته الموسومة بـ: (الحسين بن الحجاج 391هـ- 1001م حياته وشعره وتحقيق الجزء الأخير من ديوانه) من جامعة لندن عام 1986م¹.

ب- المناصب التي شغلها:

التحق بالعمل في كلية الدراسات الإسلامية والعربية في إمارة دبي بدولة الإمارات العربية المتحدة، حيث تولى تدريس الأدب والنقد لفترة بين عام 1987-1992م، ثم أستاذ الأدب والنقد المساعد لفترة من عام 1987-1997م، وأستاذ الأدب والنقد لفترة من عام 1997-2004م، إضافة إلى توليه منصب وكيل الكلية لمرتين مدّة عام 1988-1991م، وكذلك عامي 2003-2004م.

1- نقلا عن صفحة الفايسبوك: www.Facebook.com/hassamMuyassare.

ثم انتقل للعمل كأستاذ الأدب والنقد في قسم اللغة العربية في كلية التربية جامعة عجمان للعلوم والتكنولوجيا 2004م، وتولى منصب رئيس قسم اللغة العربية والدراسات الإسلامية فيها منذ عام 2005-2009م، وأصبح مدير مركز الدراسات والبحوث اللغوية والترجمة في جامعة عجمان للعلوم والتكنولوجيا للفترة من عام (2009 إلى 2011م)، علاوة على توليه منصب رئيس مجلس الإدارة التنسيقية لكيانات (كرسي الإعجاز القرآني) وكرسي القدس الشريف، وهيئة النهوض باللغة العربية في الجامعة ذاتها لأعوام (2010-2011م)، ثم منصب رئيس مجلس الإدارة التنسيقية لكيانات كرسي الإعجاز القرآني وكرسي القدس الشريف وهيئة النهوض باللغة العربية ومركز الدراسات والبحوث اللغوية والترجمة منذ عام 2011-2013م، واستقر به المطاف في جامعة الإسراء في المملكة الأردنية الهاشمية منذ عام 2013م، وعمل أستاذا للأدب والنقد بكلية الآداب في الجامعة، ثم تولى منصب رئيس قسم اللغة العربية في كلية التربية منذ عام 2013 إضافة إلى توليه أعمال منسق الدراسات العليا في الجامعة¹.

ج- آثاره:

له تسعة وعشرون كتابا متنوعا في الاتجاهات العلمية والثقافية والدينية نشرت عن دور نشر عربية وعالمية، منها:

- (القضايا القومية في شعر المرأة الفلسطينية) الصادر عن شبكة كاظمة للنشر والترجمة والتوزيع في الكويت عام 1984.

وعن دار الفكر العربي في بيروت صدرت له الكتب التالية:

- الشافي في العروض والقوافي عام 1988، ط.3، عان 1995م.

- خطبة النبي صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع عام 1990م.

- النثر في العاصر الجاهلي عام 1993م.

- بشار بن برد حياته وشعره عام 1994م.

1- نقلا عن صفحة الفايسبوك: www.Facebook.com/hassamMuyassare.



- أبو العتاهية حياته وشعره عام 1994م.
 - أبو تمام حياته وشعره عام 1994م.
 - بدايات في النقد عام 1994م.
 - النثر في العصر العباسي بالاشتراك مع الدكتور مأمون ياسين عام 1998م.
 - البحري حياته وشعره عام 2002م.
 - مختارات من الأدب الأندلسي عام 2004.
 - الأدب الجاهلي طبعة جديدة منقحة عام 2005م.
 - مختارات من الأدب العربي مشترك عن دار القلم في دبي عام 1994م.
- وفي مجال الإبداع الشعري أصدر عددا من الدواوين الشعرية والحكايات والمجموعات القصصية قيد الطبع، ثم نشرها عن دور نشر عربية وعالمية رصينة منها:
- ديوان المغترب عن دار القلم في دبي عام 2005م.
 - ديوان خليعات عن المكتب الجامعي المدني في الإسكندرية عام 2010م.
 - حكايات زيتا من ذاكرة الأوطان.
 - ديوان أحزان وأشجان - شعر قيد النشر في القاهرة-¹.

2- تقديم الكتاب:

يعد كتاب "النثر في العصر الجاهلي" لمؤلفه "هاشم صالح مناع" مادة معرفية غزيرة كانت سندا لنا في دراسة النثر الجاهلي، يقع المؤلف في 200 صفحة، فبعد مقدمة الكتاب والتمهيد الذي تناول مصطلح الجاهلية بالشرح والدراسة، تناول الكاتب موضوع النثر الجاهلي، وذلك بالدراسة والتقصي لما يميزه من خصائص إضافة إلى التطرق إلى أقسامه.

1- نقلا عن صفحة الفايسبوك: www.Facebook.com/hassamMuyassare.

قسّم الكاتب كتابه إلى ست فصول تطرّق في الفصل الأول المعنون بالأدب وأقسامه إلى تعريف الأدب وقسميه (الشعر والنثر)، وبين الفرق بينهما، ثم انتقل إلى تبيان أسبقية أحد الفنين على الآخر.

أما في الفصل الثاني المعنون بالخطابة فنجدّه يتحدّث عن موضوعات الخطب والآراء التي جارت حولها، وصفات الخطب، معرفاً بأشهر الخطباء متناولاً بالتحليل بعضاً من النصوص الخطابية.

دار الفصل الثالث حول موضوع الوصايا، فقد تطرّق فيه الكاتب أولاً إلى التعريف بهذا المصطلحات ثم قام بدراسة وتحليل لأربع وصايا من العصر الجاهلي. أما الفصل الرابع فقد جاء تحت عنوان: "الرسائل" أدرج الكاتب في هذا الفصل تعريفاً للرسالة ثم نوّه إلى عدم وجود رسالة تطمئننا إلى صحة الرسائل المنسوبة للعصر الجاهلي، وأخذ كمثال رسالتين واعتذر عن دراستها وتحليلها لأن الأمر لا يختلف عن طريقة تحليل الوصايا.

ثم الفصل الخامس كان تحت عنوان: "الحكم والأمثال" تناول فيه الكاتب آراء العلماء في مفهوم كل منهما، وقدم أمثلة نثرية وشعرية، ثم ختم فصله بتطبيق ومناقشات حولها.

وورد في الفصل السادس والأخير والذي كان تحت عنوان "خصائص النثر الجاهلي" خصائص النثر الجاهلي متناولاً الخصائص المعنوية واللفظية للنثر الجاهلي، وهذه الخصائص قائمة على استقراء ودراسة وتحليل متبعا هذا الفصل بقائمة ضمن المصادر والمراجع المعتمدة في هذا البحث.

أما بخصوص الكلمات المفتاحية فقط طغت بعض الكلمات وتكررت كثيرا في ثنايا الكتاب منها: الأدب، الشعر، النثر، النثر الفني، نظرية الفن، المرسل، القصيد، خطيب معركة، حرب، الوصية، الإرشاد، الكتابة الفنية، المشافهة، المثل، الحكمة...



3- توصيف الكتاب:

تبدو لنا واجهة الكتاب وكأنها تأخذ شكلا من أشكال الزخرفة العربية الإسلامية القديمة، حيث حوت هذه الزخرفة والتي كانت باللون الذهبي على أشكال هندسية (وقوعها في وسط مربع ذهبي)، كما حوت أشكالا فسيفسائية متناظرة مثلما نجده على جدران المساجد، وظفت هذه الزخرفة على لون مخملي مما زاد في سطوع تلك الأشكال الفسيفسائية ووضوحها، فيستخلص الملاحظ لواجهة الكتاب أن ما يكون كمحتوى له لن يخرج عن نظام التراث العربي القديم.

تتوسط هذه الزخرفة عنوان الكتاب وهو "النثر في العصر الجاهلي"، وقد كتب العنوان بخط الثلث، وهو خط عربي أصيل يستعمل في تجميل وتنميق الكتابة واللوحات الفنية خاصة في المساجد أو أماكن العبادة عموما.

تحت العنوان مباشرة وفي أسفل الصفحة نجد اسم صاحب الكتاب وهو "هاشم صالح مناع"، وقد كتب بالخط الفارسي، ويمكننا أن نلاحظ الملاحظة السابقة في قضية اختيار نوعية الخط التي كتبت بها العناوين، حيث إنه يرتبط بالتراث العربي.

وفي أسفل الصفحة مباشرة نجد وبالخط الكوفي دار النشر "دار الفكر العربي للطباعة والنشر" وفوق العبارة وجدنا رمز هذه الدار، ودائما نوعية الخط تحيلنا إلى التراث العربي، أي أن ما جاء في هذا الكتاب من مادة معرفية متعلقة بما أنتجه الأسلاف في مجال النثر الفني.

4- التركيز على العتبات النصية:

أ- قراءة في واجهة الكتاب:

يعد العنوان النافذة التي يطل من خلالها القارئ على النص أو محتوى كتاب ما، فمن خلاله تتسع أفق المتلقي فتكون له بذلك آراء استشرافية قبل تصفحه له، فهو أول ما يلفت الانتباه ويثير الفضول.

إن الكتاب الذي بين أيدينا المعنون بـ: "النثر الفني في العصر الجاهلي" سنجد في ثناياه دراسة مفصلة عن النثر في تلك الفترة.

ب- قراءة في مقدّمة الكتاب:

لقد صرف الكاتب في المقدمة إلى الاهتمام بقضية قلة الاهتمام بالنثر مقارنة بالشعر من خلال الرواية والتحقيق والتوثيق والنقد، كما يبين مؤلفنا أن النثر الجاهلي يمثل حياة الإنسان بصدق ويبين أصالته ومكارم أخلاقه، إضافة إلى أن الكاتب نوّه إلى أن الكتاب جمع لمحاضرات رتبت وبوّبت لينتفع منها الباحثون، وفي نهاية المقدمة بين خطة الكتاب وتقسيم فصوله الستة دون أن ننسى ذكر المقدمة والتمهيد والخاتمة.

ج- عتبة التمهيد:

بعد مقدمة الكتاب توجّه مؤلفنا إلى دراسة كلمة الجاهلية فأورد معناها لغة إذ هي نقيض العلم، وكلمة تدل على الحمية والسفه والطيش. أما في الاصطلاح فيدل هذا المصطلح على حال العرب قبل الإسلام، وعليه فإن هذه اللفظة أطلقت على العصر القريب من الإسلام، ميزته الوثنية والأخلاق التي قوامها الحمية التي حرّمها الدين الحنيف.

ثمّ نوّه الكاتب إلى فترة الأدب الجاهلي مستحضرا قول الجاحظ في تحديده للحقبة: «وأما الشعر فحديث الميلاد، صغير السنّ، أوّل من نهج سبيله، وسهّل الطريق إليه: امرؤ القيس بن حجر، ومهلهل بن ربيعة... فإذا استظهرنا الشعر وجدنا له - إلى أن جاء الله بالإسلام - خمسين ومائة عام، وإذا استظهرنا بغاية الاستظهار فمائتي عام»¹، هذه هي الفترة المتفق عليها، كما أن النقاد أجمعوا على أن البدايات الأولى للأدب لم تصل كم شعر أو نثر لأنها نقلت عن طريق المشافهة.

5- الحقل المعرفي الذي تنتمي إليه الدراسة:

1- أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور، لسان العرب ص74. ط. ج. دار إحياء التراث العربي . بيروت لبنان

ينتمي كتاب النثر في العصر الجاهلي للمؤلف هاشم مناع إلى حقل الدراسات الأدبية، لأن الكاتب كان في ثنايا كتابه بصدد استنباط الحقول المعرفية للنثر الجاهلي، حيث عرض جل ما يتعلق بالإنتاج النثري في هذه الفترة، إضافة إلى أنه درس بالشرح والتمثيل أقسام النثر الجاهلي، هذا الموضوع الذي أهمله النقاد كثيرا لأنهم أولوا اهتمامهم للشعر، غير أن هذا المؤلف يعتبر بحث حديث حاول صاحبه جمع أغلب ما يتعلق بالنثر الجاهلي مستعينا بالكتب الأدبية والنقدية القديمة والحديثة.

6- دواعي الكتابة :

نجد دواعي الكتاب في المقدمة إذ يصرح الكاتب قائلا: «لم يهتم الباحثون منذ القديم بالنثر مثل اهتمامهم بالشعر»¹، كما يضيف: «ولما كانت المكتبة العربية تفتقر للبحوث التي تقوم على دراسة النصوص النثرية وتحليلها، فقد قمت بجمع ما ألقيته من محاضرات على طلاب وطالبات كلية الدراسات الإسلامية والعربية بدبي، فقامت بتنسيقه وترتيبه وتوثيقه وتبويبه حتى خرج البحث بالشكل الذي أرجو فيه أن يملأ فراغا في المكتبة، ويشبع نهمة الباحثين ويسدّ حاجة الدارسين لهذا الفن العربي الأصيل»².
فإغفال النقاد والباحثين للنثر وتغليبهم الدراسات الشعرية عليه من أهم الأسباب، ولعل السبب الرئيس الذي دفع "هاشم مناع" لتأليف الكتاب، فالكاتب يرى أن النثر هو الوجه المشرق لكل عصر من العصور لذلك وجب الاهتمام به.

7- القيمة العلمية لعمله والمصادر التي استقى منها مادته:

للكتاب الذي بين أيدينا قيمة علمية كبيرة، فقد سعى صاحبه جاهدا لإحاطة بكل مل يتعلق بالنثر العربي ودرس أقسامه مستعينا بنماذج في كل قسم شارحا إياها محلا لها، ففي فصل الوصايا أخذ وصايا وقام بتحليلها كما فعل في الخطب والرسائل.

1- هاشم صالح مناع، النثر في العصر الجاهلي، ص. 09.

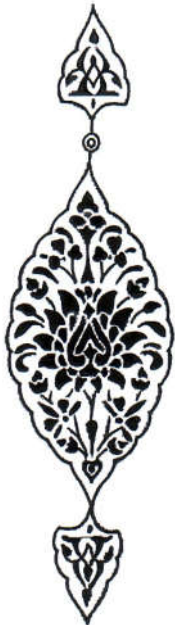
2- المرجع نفسه، ص. 10.

أما المصادر التي استقى منها مادته فعلى الأغلب مصادر متخصصة في الأدب، منها ما هو مخصص للأدب عامة كتاريخ الأدب العربي لشوقي ضيف، والأدب وفنونه لعز الدين إسماعيل، ومنها ما خصص للأدب الجاهلي ككتاب طه حسين، وكتاب العصر الجاهلي لشوقي ضيف، ومنها ما خصص لدراسة فني الأدب (الشعر والنثر) ككتاب حديث الشعر والنثر لطفه حسي، وكتب أخرى...

لا يمكننا القول عن الكتاب أنه تقليد، فالكاتب لم يقلد كتابا سابقين في محتواه، لكن بحقه عبارة عن جمع للمعلومات القديمة التي تخص النثر الجاهلي واللمسة التي أضافها أنه قام بتحليل نماذج الأقسام المكونة للنثر من وصايا وخطب... وإعداد شروح وتعريفات لبيسطها.

وما يميز هذا الكتاب هو كثرة التجميع، مما أدى بإثراء الكتاب، وما لاحظناه أن فصول الكتاب كثيرة (ستة فصول)، وهذا العدد يدل على قيمة الكتاب ومدى توسع الكاتب في عرضه لقضاياها ومعالجته لها وتحليله إياها.

فَهْرَسْت



عَرَضٌ وَتَقْدِيمٌ

دراسة كتاب:

النثر في العصر الجاهلي

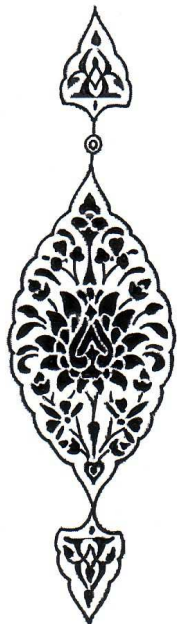
لهاشم صالح مناع



عَرَضٌ وَتَقْدِيمٌ

الفصل الأول:

الأدب وأقسامه





الفصل الأول

الأدب وأقسامه

الأدب:

يبدأ الكاتب في هذا الفصل بتحديد مصطلح الأدب آخذاً تطوره عبر العصور منذ العصر الجاهلي حيث أخذ الأدب المعنى الحسي، إذ كان يعني الدعوة إلى المأدبة و الطعام وقد استشهد بيت لطفة بن العبد لتحديد معنى للكلمة آنذاك:

لَحْنُ فِي الْمَشْتَاةِ نَدَعُو الْجَفَلَى لَا تَرَى الْآدِبَ فِينَا يَنْتَقِرُ

ثم في العصر الأموي تحوّل معنى الأدب إلى معنى تهذيبي تعليمي، حيث اتخذ الخلفاء الأمويين لأبنائهم مؤدبين، ومن ثم العصر العباسي، إذ شمل المعنى التهذيبي، والتعليمي في السياسة والأخلاق، ثم تطوّر مفهوم هذه اللفظة إلى أن ثارت تطلق على الشعر والنثر معاً¹.

لم يختلف رأي الكاتب والمؤرخين حول تطور مصطلح الأدب، إذ يرى "شوقي ضيف" أن «كلمة أدب من الكلمات التي تطور معناها بتطور حياة الأمة العربية وانتقالها من دور البداوة إلى أدوار المدنية والحضارة. وقد اختلفت عليها معانٍ متقاربة حتى أخذت معناها الذي يتبادر إلى أذهاننا اليوم، وهو الكلام الإنشائي البليغ الذي يقصد به إلى التأثير في عواطف القراء والسامعين؛ سواء أكان شعراً أم نثراً»².

بالإضافة إلى أنه «لم تقف الكلمة عند هذا المعنى التعليمي الخاص بصناعاتي النظم والنثر وما يتصل بهما من الملح والنوادر؛ فقد اتسعت أحياناً لتشمل كل المعارف غير الدينية التي ترقى بالإنسان من جانبيه الاجتماعي والثقافي؛ فقد جاء على لسان الحسن ابن سهل المتوفى سنة 236هـ: "الأدب عشرة؛ فثلاثة شهرجانية، وثلاثة أنوشروانية، وثلاثة عربية،

1- هاشم صالح مناع، النثر في العصر الجاهلي، ص. 09.

2- شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي العصر الجاهلي، دار المعارف، القاهرة، مصر، د. ط، د. ت، ص. 07.



وواحدة أربت عليهن؛ فأما الشهرجانية فضرب العود ولعب الشطرنج ولعب الصواجج، وأما الأنوشروانية؛ فالطب والهندسة والفروسية، وأما العربية فالشعر والنسب وأيام الناس، وأما الواحدة التي أربت عليهن فمقطعات الحديث والسمر وما يتلقاه الناس بينهم في المجالس»¹. ولقد عرّف مُجّد "حسن عبد الهادي" الأدب بقوله: «إنه التعبير عن تجربة إنسانية بلغة تصويرية هدفها التأثير، وفي شكل فني جمالي قادر على تصوير تلك التجربة»². وينتهي الكاتب "هاشم مناع" من خلال تعريفه للأدب إلى أنه: «العمل الفني على اختلاف أنواعه - شعرا أو نثرا- يبرزه الأديب من خلال اللغة المعبرة القادرة على التوغل في عقل السامع، وقلب القارئ بطريقة ناجحة مؤثرة يستطيع من خلالها تجسيد العمل الفني وإحداث التفاعل عند المتلقي الذي ينتج المتعة، أو هو الصياغة الفنية للتجربة الإنسانية»³. إذا أردنا تقصي حقيقة الأدب، فإنه يحضرنا قول "حنا الفاخوري": إذ يرى بأنه: «عبارة عما سبك في قالب ظريف، وصيغ على نمط الإنشاء الأنيق من الكلام المنظوم والمنثور»⁴، بناءً على ما سبق فقد تطورت لفظة الأدب على مر العصور بتطور حياة الأمة العربية.

ويجمل "حنا الفاخوري" القول حول الأدب إذ يقول: «وخلاصة القول أن المراد بالأدب عند بعض طبقات الناس ببغداد منذ ابتداء القرن الثالث هجري إظهار الأخلاق المرضية للجلساء، والظرف والأناقة في اللباس والشراب وسائر أحوال الحياة والأنس والفصاحة وعذوبة الكلام، ثم حفظ الأبيات والنكت، مع أخذ شيء من كل علم لتوشيه الحديث به»⁵.

1- المصدر السابق ص.9.

2- مُجّد حسين عبد الله، مقدمة في النقد الأدبي، ص.18، نقلا عن: هاشم صالح مناع، النثر في العصر الجاهلي، ص.20.

3- هاشم صالح مناع، النثر في العصر الجاهلي، ص.21.

4- حنا الفاخوري، الجامع في تاريخ الأدب العربي - الأدب القديم-، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط.1، د.ت، ص.14.

5- المصدر نفسه، ص.15.



لقد شقّ الأدب في تطور تعريفه عصوراً أخذاً معنى معيناً، وصبّت جل تفسيراته في قالب الصياغة الفنية للتجارب الإنسانية ويحتوي هذا الأخير على عناصر تكونه هي الفكرة والأسلوب والعاطفة والمعنى والخيال، أما أقسام الأدب فهي قسمين شعر ونثر، يقول قدامة بن جعفر: «واعلم أن سائر العبارة في كلام العرب إما أن يكون منظوماً أو منشوراً، المنظوم هو الشعر والمنثور هو الكلام... وليس يخلو المنثور من أن يكون خطابة أو ترسلاً أو احتجاجاً أو حديثاً»¹.

وستنطلق في هذا الفصل إلى دراسة أقسام الأدب (الشعر والنثر) من خلال الكتاب.

1- الشعر:

أخذ "هاشم صالح" في تحديده معنى الشعر قولاً لـ"قدامة بن جعفر" إذ يقول: «قول موزون مقفى يدل على معنى»²، وأضاف تعريف "ابن رشيق القيرواني" إذ يقول: «الشعر يقوم بعد النية من أربعة أشياء، وهي: اللفظ، والوزن، والمعنى، والقافية، فهذا هو حد الشعر؛ لأن من الكلام موزوناً مقفى وليس بشعر؛ لعدم القصد والنية، كأشياء اتزنت من القرآن، ومن كلام النبي ﷺ، وغير ذلك مما لم يطلق عليه أنه شعر»³، ويعرف حنا الفاخوري الشعر بقوله: «والشعر هو المعنى الجميل في الكلام الموزون المقفى أو هو المعنى الجميل في القالب الجميل، والوزن أو البحر في الشعر هو المقياس المؤلف من تفاعيل سباعية أو خماسية ممتزجة»⁴.

1- قدامة بن جعفر، نقد النثر، تح. أحمد مطلوب وخديجة الحديثي، ص. 74، نقلاً عن: هاشم صالح مناع، النثر في العصر الجاهلي، ص. 23.

2- قدامة بن جعفر، نقد الشعر، الناشر: مطبعة الجوائب - قسطنطينية، الطبعة: الأولى، 1302، ص. 03، نقلاً عن: هاشم صالح مناع، النثر في العصر الجاهلي، ص. 21.

3- أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، تح. محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، الطبعة: الخامسة، 1401 هـ - 1981 م، ج. 1، ص. 119.

4- حنا الفاخوري، الجامع في تاريخ الأدب العربي - الأدب القديم، ص. 28.



إن هذه التعريفات تحيل إلى معنى واحد، فالشعر هو ما اشترك فيه لفظ ووزن وقافية ودل على معنى.

ويعرف "حسين الشيخ" الشعر بقوله: «الشعر يعتبر كأى لون أدبي آخر مصدرا تاريخيا - وإن كان غير مباشر - فالأدب بشكل عام مصدر تاريخي صحيح غالبا يعبر عن وجدان الشعب وأفكاره، ومعتقداته وعقيدته إجمالا عن كل ظروفه الحياتية، وهو هنا يختلف عن الوثائق التاريخية المباشرة كالسجادة الحكومية التي تعبر دائما عن الطبقة الحاكمة، ولما كان الشعر هو اللون الأدبي الغالب على حياة العرب قبل الإسلام وإلى حد ما بعد ظهور الإسلام أيضا، لذا كان من الصعب تجاهله رغم ما يثيره الاعتماد على الشعر كمصدر تاريخي من الحساسية لدى بعض المؤرخين»¹، لكن مهما يكون يعتبر الشعر ديوان العرب وحافظ مآثرهم ومفاخرهم وتاريخهم، كثرت المؤلفات فيه وعني بعناية تامة، كما يعتبر في نظر النقاد العرب أكثر حظا من الفن وأولى بالنقد والوزن، أما النثر مهما احتفل أصحابه بإتقانه له لم ينل من أنفس النقاد منزلة الشعر.

2- النثر:

لقد عرف "هاشم صالح" النثر وبيّن نوعيه: «إن النثر أدب إنشائي ينقسم إلى نوعين نثر عادي يدور فيه كلام الناس للمخاطبة أثناء المعاملة والنوع الثاني هو النثر الفني الذي يخضع لعملية الفن يحتوي على عناصر فنية»².

يعرف شوقي ضيف النثر على أنه: «الكلام الذي لم ينظم في أوزان وقواف، وهو على ضربين: أما الضرب الأول فهو النثر العادي يقال في لغة التخاطب، وليست لهذا الضرب قيمة أدبية، إلا ما يجرى فيه أحيانا من أمثال وحكم، وأما الضرب الثاني، فهو النثر الذي يرتفع فيه أصحابه إلى لغة فيها فن ومهارة وبلاغة، وهذا الضرب هو الذي يعنى النقاد

1- حسين الشيخ، العرب قبل الإسلام دراسات في تاريخ الحضارات القديمة، دار المعارف الجامعية، الإسكندرية، مصر، د.ط، د.ت، ص.58.

2- هاشم صالح مناع، النثر في العصر الجاهلي، ص.22.

في اللغات المختلفة يبحثه ودرسه، وبيان ما مر به من أحداث وأطوار، وما يمتاز به في كل طور من صفات وخصائص، وهو يتفرع إلى جدولين كبيرين، هما الخطابة والكتابة الفنية - ويسميا بعض الباحثين باسم النشر الفني - وهي تشمل القصص المكتوب، كما تشمل الرسائل الأدبية المحبرة، وقد تتسع فتشمل الكتابة التاريخية المنمقة¹، إذا فالنشر ينقسم إلى قسمين: أما الأول فهو المستعمل في المخاطبة أثناء المعاملة، والقسم الثاني هو النشر الفني الذي يخضع لعناصر فنية وهو الذي يعيننا.

ويضيف شوقي قائلاً: «حين نتحدث عن النشر الجاهلي ننحى النشر العادي الذي يتخاطب به الناس في شئون حياتهم اليومية؛ فإن هذا الضرب من النشر لا يعد شيء منه أدباً إلا ما قد يجري فيه من أمثال؛ إنما الذي يعد أدباً حقاً هو النشر الذي يقصد به صاحبه إلى التأثير في نفوس السامعين والذي يحتفل فيه من أجل ذلك بالصياغة وجمال الأداء، وهو أنواع، منه ما يكون قصصاً وما يكون خطابة وما يكون رسائل أدبية محبرة، ويسمى بعض الباحثين النوع الأخير باسم النشر الفني»².

يقول صالح مناع: «إن تراثنا الفني النثري الجاهلي يعتبر غنيا رغم قلته منه ما يصور حياتهم ومنها ما يدل على رقيهم الثقافي والعقلي»³.

إن القليل من ما وصلنا من النشر العربي يدل على الرقي الثقافي والأخلاقي الذي شهدته العصر الجاهلي، فالمتعمن للنصوص النثرية (من خطب ووصايا...) يلحظ كيف أنها دستور أخلاقي ضبطت شيم الرجل الجاهلي لما تدعو إليه من (كرم وحسن الجوار و الطاعة...).

1- شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في النشر العربي، دار المعارف، القاهرة، مصر، الطبعة: الثالثة عشرة، د.ت، ص.15.

2- شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي العصر الجاهلي، ص.398.

3- هاشم صالح مناع، النشر في العصر الجاهلي، ص.23.



3- الفرق بين الشعر والنثر:

في تحديد الفرق بين الشعر والنثر يقول ابن خلدون: «اعلم أن لسان العرب وكلامهم على فنين: فن الشعر المنظوم: وهو الكلام الموزون المقفى، ومعناه الذي تكون أوزانه كلها على روي واحد، وهو القافية وفي النثر هو الكلام غير الموزون»¹.

أما الكاتب "صالح مناع" فقد استعسر عليه تحديد الفرق بين الأخيرين، لكنه رجع وأيد "ابن خلدون"، إذ اعتبر «الشعر مقيد بوزن وقافية تختلف أساليه عن النثر وأن الأفكار ترتبط بالنثر، فيما ترتبط الانفعالات بالشعر، وهذا مجرد اختلاف»²، يختلف الشعر عن النثر من خلال تقيد الشعر بوزن وقافية بعكس النثر في أسلوبه، إذ يرتبط بالأفكار، كما أن النثر لم ينل من التنميق والتزويق ما ناله الشعر العربي من نصيب ف «النثر إذا فن قولي غير منظم يقابل الشعر ذلك القول الفني المنظوم، والفرق بين الشعر والنثر في رأي الكثير من النقاد إنما يرجع إلى هذه الناحية الموسيقية فحسب، حتى إن بعضهم اتخذ من هذا حجة لتفضيل الشعر عن النثر»³.

كما يصرح "أحمد زكي مبارك" بأن «النقاد لم يعطوا النثر ما أعطوا للشعر من العناية: فلسنا نجد في كتب النقد تلك الأبحاث المطولة التي يراد بها معاني الكتاب إلى مصادرها الأولى على نحو ما فعلوا في درس معاني الشعر وبيان المبتكر فيها، والمنقول، فقد نجدهم يتعقبون المعنى حين يرد في بيت من الشعر، فيذكرون أجديد هو أم قديم ثم يذكرون من أخذ عنه إن كان قديماً، ويبينون الفرق بين المعنى في صورته الأولى وبينه في صورته الثانية، وقد يزيدون فيذكرون الأدوار التي مر بها المعنى منذ عرف من الجاهليين ويبينون درجات من تناوله من الشعراء»⁴، ويضيف "زكي مبارك" في باب الفرق بين الشعر والنثر

1- ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ص532، نقلا عن: هاشم صالح مناع، النثر في العصر الجاهلي، ص24.

2- هاشم صالح مناع، النثر في العصر الجاهلي، ص24.

3- عثمان موائى، في نظرية الأدب من قضايا الشعر والنثر في النقد العربي، ج.1، ط.3، دار المعرفة الجامعية، مصر، 2000م، ص39.

4- أحمد زكي مبارك، النثر الفني في القرن الرابع، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، مصر، د.ط، 2012م، ص19.



قائلا: «وهذا الذي نقوله يبين وجها من الفروق بين النثر والشعر من الوجهة الفنية: فالشعر في نظر النقاد من العرب أكثر حفا من الفن وأولى بالنقد من الوزن، والنثر مهما احتفل أصحابه بإتقانه وتجويده لم ينل من أنفس النقاد منزلة الشعر، ولذلك قلة العناية بتقييمه أو ابده والنص على ما فيه من ضروب الإبداع والابتكار أو دلائل الضعف والجمود»¹.

إن الآراء القائلة باختلاف الشعر عن النثر من خلال الناحية الموسيقية لم يسلم به كافة الأدباء، ف"طه حسين" «يرى أن النثر تعبير فني نشأ عن الشعر في مرحلة من مراحل تطوره»²، وهو قول يذهب إليه معظم النقاد الحدائين، أما في نظر هيكل فإن النثر المثالي هو ذلك «الفن القولي الذي يستطيع التعبير عن حاجات النفس والعقل والعاطفة»، وهو قول أراد به مقولة "طه حسين" بأن النثر لغة العقل والشعر لغة الخيال والعاطفة.

4- أسبقية الشعر / النثر:

انقسم الباحثون إلى تيارين: التيار الأول يسبق الشعر عن النثر، والتيار الثاني يسبق النثر على الشعر، والوقوف في هذا الموضوع يتطلب بحثا واسعا، ولتجنب الملل عرض الكاتب رأي التيارين بإيجاز، وسنزيد آراء كتاب آخرين في هذا الموضوع.

– الشعر أسبق من النثر: استعرض الكاتب أولا الآراء القائلة بأقدمية الشعر.

فبداية يرتبط الشعر العربي بالطبع مما يجعله سهل الحفظ لا يحتاج إلى تقدم، عكس الكتابة التي تتطلب تقدما علميا لسهولة حفظها، ومن الذين رشحوا أسبقية الشعر على النثر "عز الدين إسماعيل"، إذ يقول: «إن الشعر هو الطريقة الوحيدة التي اهتدى بها الإنسان بحكم تكوينه البيولوجي والنفسي للتعبير والتنفيس عن انفعالاته ومن هنا ارتبطت الانفعالات بالشعر والأفكار بالنثر»³، لقد ربط الكاتب هذا الرأي بمثال عن «القرى البدائية التي كانت تدق الطبول وترقص وتغني، والغناء شكل من أشكال الشعر، وبما أن

1- أحمد زكي مبارك، النثر الفني، ص.19.

2- عثمان مواني، في نظرية الأدب من قضايا الشعر والنثر في النقد العربي، ج.2، ص.35.

3- المرجع نفسه، ج.2، ص.37.

الموسيقى من مقومات الشعر، فذلك سهل روايته وحفظه بعكس النثر الذي يتطلب الكتابة»¹.

إضافة إلى أن الأمم قد بدأت حياتها الأدبية بالشعر ولما تطورت نظمت الأفكار في النثر، وينقل الكاتب في هذا السياق قولاً لطفه حسين إذ يقول: «فعندما نلاحظ تاريخ الأمم كاليونان مثلاً نجد أنها كانت شاعرة، أنشأ الشعر قصصياً ثم غنائياً ثم تمثلياً، كما هو الحال في قصائد هوميروس التي كانت تنشد ويتغنى بها قبل أن يؤلف لها أو يظهر النثر الفني، وحين امتزج اليونان بالأمم الشرقية والغربية المختلفة ونشأت أفكار جديدة حاولوا التعبير عن هذه الأفكار بالشعر، فعجز الشعر عن ذلك، لذا كان النثر الفني هو الطريقة الوحيدة التي يعبر فيها عن هذه الأفكار»²، إضافة إلى أن «الشعر العربي لم يكتب جزلاً منذ البداية بهاته الدرجة، فقد كانت بدايات مهدت له إذ إن العرب خطوا المرسل والسجع والرجز ثم القصيد؛ فالسجع كان الطور الأول من الأطوار الشعرية»³، هذا الرأي قصد به صاحبه أن طفولة الشعر العربي لم يبلغنا منها شيء وأن شعراً بجزالة الشعر الجاهلي لا يمكن أن يكون البداية، الأرجح أنه مر بمراحل عديدة.

أما ابن رشيق فقد فضل الشعر على النثر غالباً لأسباب فنية، وهو يذكر «أن كلام العرب نوعان: منظوم ومنتور، ولكل منهما ثلاث طبقات في القدر وتساوتا في القيمة، ولم يكن لإحدهما فضل على الأخرى، كان الحكم للشعر ظاهراً في التسمية لأن كل منظوم أحسن من كل منتور تبدد في الأسماع فإذا أخذه سلك الوزن وعقد القافية تألفت أشناته وازدوجت فوائده»⁴، يشبه الشعر بالعقد المنظوم، فإنه لا يصح أن يشبه النثر بالدر المنتور لأن النثر منظوم أيضاً، ثم يضيف الكاتب: «في العصر الجاهلي كان الشعر في أوجه، وعندما أصبح الشعر قاصراً عن التعبير عن الدين الإسلامي فاتجهوا للنثر حيث ارتفع

1- عز الدين إسماعيل، الأدب وفنونه، ص.130. نقلاً عن: هاشم صالح مناع، النثر في العصر الجاهلي، ص.27.

2- طه حسين، من حديث الشعر والنثر، ص.33. نقلاً عن: هاشم صالح مناع، النثر في العصر الجاهلي، ص.28.

3- هاشم صالح مناع، النثر في العصر الجاهلي، ص.27.

4- زكي مبارك، النثر الفني، ص.19.

مستواه الفني وأصبحوا يتذوقونه»¹، بعد عرض الآراء القائلة بأسبقية الشعر عن النثر فإن المتلقي يلمس شيئاً من الواقعية، وينحاز إلى ترجيح هذه الآراء، فالمتأمل لقصائد امرؤ القيس ووقوفه على الطلل وهو يحاكي ابن خدام، وعنترة يشير إلى الشعراء السابقين يتأكد له أن للشعر العربي بدايات لم تصل، وأن العرب عرفوا الشعر قبل النثر، وهذا الرأي لا ينفي وجود بدايات للنثر التي لم تحفظ وإنما يؤكد أن الشعر عرف قبل النثر.

– النثر أسبق من الشعر:

إن أغلب الآراء ترجح أسبقية الشعر، وبالرغم من أن الكاتب كان في مقام المؤيد لهذا الرأي، ولكنه ذكر الآراء التي ذهبت إلى أسبقية النثر على الشعر، رأت أنه أسبق أنواع الكلام لعدم تقييده وضرورة استعماله، يقول الباقلاني: «إن العرب بدؤوا بالنثر وتوصلوا منه إلى الشعر، فلما استحسنوه واستطابوه، أو أنه قد تألفه الأسماع وتقبله النفوس تتبعوه من بعد وتعملوه»².

إضافة إلى أن هناك من يرى أنه أقدم نشأة ودوراناً على الألسن، وقد أخذ الكاتب قولاً لابن رشيق، حيث يقول: «كان الكلام كله منشوراً فاحتاجت العرب إلى الغناء بمكارم أخلاقها، وطيب أعراقها، وذكر أيامها الصالحة، وأوطانها النازحة، وفسانها الأجماد، وسمحاتها الأجواد؛ لتَهْزَ أنفسها إلى الكرم، وتدل أبناءها على حسن الشيم فتوهموا أعاريض جعلوها موازين الكلام، فلما تم لهم وزنه سموه شعراً؛ لأنهم شعروا به، أي: فطنوا»³.

إن دلالة هذه الآراء أن العرب بدؤوا بالنثر وطوروه وتوصلوا إلى الشعر وذلك لسهولة الشعر عليهم، وعدم تقييده، وهم يستشهدون في ذلك بالكتب السماوية القديمة، إذ هي التي أدت إلى نشأة النثر الفني قبل وجود الشعر بوقت طويل: «السجع هو المرحلة الأولى

1- هاشم صالح مناع، النثر في العصر الجاهلي، ص.28.

2- الباقلاني، إعجاز القرآن الكريم، ص.23، نقلاً عن: هاشم مناع، النثر في العصر الجاهلي، ص.30.

3- ابن رشيق، العمدة، ص.74، نقلاً عن: هاشم صالح مناع، النثر في العصر الجاهلي، ص.30.



التي عبرها النثر إلى الشعر في الأدب العربي، وإن كل الكتب السماوية القديمة، وهي التي أدت إلى نشأة النثر الفني قبل وجود الشعر»¹.

يقول "حنا الفاخوري" حول النثر الجاهلي: «والذي يتراءى لنا هو أن الجاهليين عرفوا النثر ودونوا بعضه لنفس الأسباب التي دعته لتدوين بعض الشعر، ولكن ذلك النثر كان له حظه من الحفظ أقل من الشعر لصعوبة روايته، ثم إنه كان أكثر تعرضاً للتحريف والنحل بسبب صعوبة روايته وسهولة تحريفه والإضافة إليه - أما ما بقي لنا منه فبعض أسجاع الكهان وبعض الأمثال والحكم والقصص»²، فحنا الفاخوري هنا يرجع ضياع النثر إلى صعوبة حفظه وأن الشعر كان له حظ أوفر في الحفظ مقارنة بالنثر، وكل القائلين بأسبقية النثر يرون أن الأديب الذي يعبر نثراً فذلك لأن اللحظة التي يعبر فيها بالنثر هي الطريقة الوحيدة الكافية للتعبير عن ما يجول في خاطره ولا يخرجها إلا نثراً.

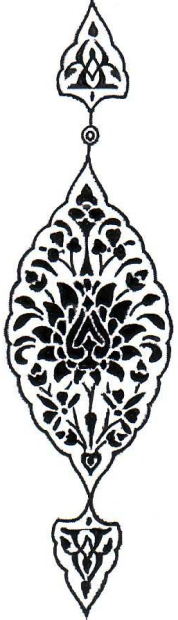
1- هاشم صالح مناع، النثر في العصر الجاهلي، ص.30.

2- حنا الفاخوري، الجامع في تاريخ الأدب العربي - الأدب القديم، ص.ص.112-113.

عَرَضٌ وَتَقْدِيمٌ

الفصل الثاني:

الخطابة





الفصل الثاني

الخطابة

النثر الجاهلي:

إن العقل والطبيعة يؤيدان أن الجاهليين لهم نثر أدبي، فليس هناك مانع يجعل ذلك مستحيلا أو معدوما، فإذا كان لهم شعر فلا بد أنه كان لهم نثر، الذي يتحرر فيه القائل من قيود الشعر التي تقف أمام الأديب، فلا يستطيع التزامها، والواقع أنه كان لهم نثر، وأنهم حتما كانوا يجيدون النثر الأدبي بدليل نزول القرآن وما يتلوه عليهم، فالنثر الجاهلي لاشك أنه كان كثيرا يفوق ما كان لهم من الشعر، وقد سبق أو وضّحنا ذلك، ولكن سنة الكون دائما تجعل الشعر أوفر حظا من النثر في العناية والاهتمام، فالشعر يحفظ ويتناقل ويروى على مر الأجيال بسبب مقاطع موسيقاه المنظمة التي تجعله أسهل علوقا بالذهن، وهذه هي الخاصية التي فقدت في النثر وجعلته أقل حفظا ورواية، ومن هنا لاشك أن النثر الجاهلي كان من الصعب على الرواة أن يحفظوه بعضه فالغالب أنه قد ضاع¹.

وعليه فإن مجمل العبارة في كلام العرب إما أن يكون منظوما أو منشورا، فالمنظوم هو الشعر أما المنشور فهو الكلام وهما يختلفان عن بعضهما، ولكن مما لاشك فيه أن النثر أقل أهمية من الشعر، لكن العرب اهتموا بالشعر دون النثر، وذلك راجع إلى أن أذن العربي تتلذذ بموسيقى الشعر، مما يسهل حفظه، وهذا الإهتمام لم يكن في الماضي فقط، بل حتى يومنا هذا، فالسبب الرئيسي في عدم وصول النثر الجاهلي إلا كمية قليلة لأنه لا يكاد يخرج عن الوصايا والخطابة والحكم والأمثال وسجع الكهان².

1- علي الجندي، في تاريخ الأدب الجاهلي، مكتبة دار التراث، طبعة دار التراث الأول، بيروت، لبنان، 1412هـ - 1991م، ص.258.

2- ينظر: هاشم صالح مناع، النثر في العصر الجاهلي، ص.30.



لقد اتفق مؤرخو اللغة العربية وآدابها مثل خليل مطران و طه حسين كما اتفق مؤرخو الإسلام علي بن أبي طالب و عمر بن الخطاب على أن العرب لم يكن لهم وجود أدبي ولا سياسي قبل عصر النبوة، وأن الإسلام هو الذي أحياهم بعد موتهم، وهذا الاتفاق راجع إلى أصليين وهما أن مؤرخو الإسلام أرادوا تأييد النزعة الدينية وهي أن الإسلام هو الذي خلق العرب ونقلهم من الظلمات إلى النور.

أما الفئة الثانية وهم مؤرخو اللغة العربية وآدابها يرجع إلى الشك في كثير من النصوص الأدبية التي أثرت عند العرب قبل الإسلام من خطب وأسجاع وأمثال، وهناك رأي مثقل بأوزار الخطأ والظلال وهو رأي السيد مرسية ومن شايعه كالدكتور "طه حسين" وذلك الرأي يقول بأن العرب في الجاهلية كانوا يعيشون عيشة أولية أي لا يوجد عندهم نثر فني لأن لغة العقل عندهم كانت تسمح بقول الشعر لأنه يعبر عن العواطف والخيال، فقد أكد كل من الدكتور طه حسين والسيد مرسية على أن العصر الذي سموه بالأولية عند العرب هو القرن الخامس لميلاد وفي ذلك العصر كان النثر الفني موجودا عند أكثر الأمم مثل: الفرس، الهند، ومصر... إلخ، وأنه ليس من المعقول وجود نثر فني قبل الميلاد، وكأن العرب انفردوا في التاريخ القديم بالتخلف في ميادين العقل والمنطق والخيال¹.

إن السيد مرسية يؤمن بوجود خطب في العهد الجاهلي، وينكر إنكارا مطلقا وجود النثر الفني، وحجته في ذلك أنه لم كان هناك مؤلفات نثرية لدون وحفظت ونقلت إلينا، ولكن رأيه هذا لا يكفي لإنكار أنه كان للنثر الفني نصيب في الوجود والقرآن الكريم دليل على ذلك لأنه أثر جاهلي.

وخلاصة القول أن العرب كان لديهم نثر فني يتناسب مع صفاء أذهانهم وسلامة طباعهم لكنه ضاع بسبب شيوع الأمية وقلة التدوين، والنتيجة هي أننا لا نستطيع أن نعطي للنثر الفني في العصر الجاهلي لونا نظمئن إليه، لأن أكثر ما نسب إلى الجاهليين غير صحيح، ومؤرخو الأدب مطمئنون لذلك، لأن الشعر بقي منه أضعاف ما بقي من النثر

1- ينظر: زكي أحمد مبارك، النثر الفني في القرن الرابع، ص.ص. 35-36.



لأنه موزون ومقفى ويسهل حفظه، وكذلك لأنه قيل في حوادث مشهورة ساعدت على ترديده، وبالرغم من هذا إلا أن هناك من شكك في وجوده أمثال "طه حسين" وعليه فإذا كان الشعر الجاهلي مهدد بهذا الرفض بالرغم من أنه كان لديه اهتمام من الرواة والحفاظ والناسخين إذن كيف يمكن الاطمئنان لصحة ما نسب إلى الجاهليين من النثر مع أن عناية الرواة به كانت قليلة ومع أن من خطباء الإسلام نفسه من ضاعت آثارهم لقلّة التدوين¹.

النثر هو الكلام الذي لم ينظم في وزن ولا قافية، وهو ضربين، فالضرب الأول هو النثر العادي الذي يقال في لغة التخاطب وليس لهذا الضرب قيمة أدبية إلا ما جرى كجري الأمثال والحكم، أما الضرب الثاني فهو النثر الذي يرقى فيه صاحبه إلى فن بمهارته وبلاغته وهذا الضرب هو الذي يعنى به النقاد والباحثين بدراسته وبيان ما مر به من أحداث وأطوار وبيان خصائصه.

فمن يرجع إلى العصر الجاهلي وأخباره يجد هذا الضرب الأخير من النثر يلعب دورا كبيرا في حياة العرب، فكان عرب الجاهلية مشغوفين بالتاريخ والقصص عن فرسانهم ووقائعهم، وبذلك يقضون أوقات السمر، وينبغي أن لا نعلق على أهمية تاريخية أو أدبية على هذا القصص لأن الرواة حرفوا فيه كثيرا قبل أن يأخذ شكله النهائي عند "أبو عبيدة" وغيره من مؤلفي العصر العباسي.

وتوضح ذلك قصة "الزباء" أو ما يسمونه "زنوبيا" فعند قراءة نجد وكأنه لا علاقة تبين شخصية "زنوبيا" التاريخية وشخصية "الزباء" في القصة العربية².

فقد غيرت في القصة جميع المعالم التاريخية، وإن كنا لا نستطيع أن نعتمد على هذا القصص في حوادث التاريخ لنا أن لا نعتمد عليه في وصف النثر الجاهلي، وبيان خصائصه لأنه لم يكتب في العصر الجاهلي ولا في عصر قريب منه، بل كتب في العصر العباسي

1- ينظر: زكي أحمد مبارك، النثر الفني في القرن الرابع، ص. 36-38.

2- ينظر: شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في النثر العربي، ص. 15-17.



لذلك نجد تحريفا فيه، فلو أن العرب كتبوا تاريخهم وقصصهم في العصر الجاهلي لاعتدنا على وجود هذا اللون من نثرهم.

والحقيقة في أنه لا يوجد تحت أيدينا دليل على أن العرب تركوا العصر الجاهلي مدونات تاريخية أو أدبية وإنما الذي نستطيع أن ندعيه لهم حقا وجود أمثال وخطب في ذلك العصر، فقد سلّمت طائفة واسعة من الأمثال تناقلها جيل عن جيل، وكذلك الخطب التي كانت تعبر عن منافراتهم ومفاخراتهم¹.

الخطابة:

إن الخطابة حديث يقصد به إثارة المشاعر وإلهاب العواطف، فالحياة الجاهلية جعلت الخطابة ضرورة لهم، فمنهم في عرض اجتماعاتهم وفي عرض آرائهم، فلا شك أن العرب يحتاجون إلى الإفصاح عما يريدونه رغبة في الوصول إلى مقاصدهم، وكلما كان إفصاحهم أقوى وأعذب كان تأثيره في القلوب أشد، فساعد على وجود الخطابة بينهم².

فالخطابة في العصر الجاهلي لم يكن لها اهتمام كبير مثلما كان في العصر الإسلامي، وهذا راجع إلى طبيعة العصر وظروفه لأن الرواة لم يهتموا به مثلما اهتم الشعراء بالشعر³.

الخطابة كالشعر لحملها الخيال، فهي مظهر من مظاهر الحرية وسبيل من سبل التأثير والإقناع، فهي تحتاج إلى طلاقة اللسان ونصاعة البيان وطلاقة البديهة، فالعرب ذو نفوس حساسة، فكان لهم القدم السابقة والقدح المعلى وقد دعاهم إليها ما دعا الأمم البدوية من الفخر بحسبها وشرفها وإصلاح ذات البين بين الحبيبين.

فكان لكل قبيلة خطيب سيّد أزارها وشاعر يرفع ذكرها وربما اجتمعت الصفتان في واحد، أما أسلوبها فيكون رائع اللفظ، خلاب العبارة، وواضح المنهج وقصير السجع، كثير الأمثال، فمن عادتهم في الخطابة أن يكون الخطيب فوق ظهر دابة أو مكان مرتفع على

1- ينظر: شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في النثر العربي، ص.20.

2- علي الجندي، في تاريخ الأدب الجاهلي، ص.264.

3- ينظر: هاشم صالح مناع، النثر في العصر الجاهلي، ص.39.



الأرض ورفع اليدين ووضعها والاستعانة على العبارة بالإشارة والاعتماد على الصفاح والرماح والإشارة بها، فكانوا يجوبون في الخطيب أن يكون جهير الصوت سليم النطق، وأشهر الخطباء في هذا العصر: قس بن ساعدة الإيادي، وعمر بن كلثوم التغلبي، وأكثم بن صيفي التميمي¹.

يقول أحد السادة الأوروبيين وهو "تاليران" عن الخطابة: إن فن القول لم يبتكره البشر لإفصاح عما في أنفسهم من حقائق وأفكار كانت أم مشاعر، بل الإخفاء هذه والإبهام بضدها ولسوء الحظ سيطر هذا الفهم المعرض على فن القول السياسي أي على الخطب السياسية في كثير من العصور بدعوة مطابقة الكلام لمقتضى الحال، أو لآمال وإرهاصات الجماهير التي يوجه إليها القول².

كان ظهور الإسلام بالدعوة العظمى من أهم الأسباب التي بلغت بها الخطابة غاية كمالها، فإن الدعوة إلى الدين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقمع الفتن ورد البدع كل ذلك من أغراض الخطابة في الإسلام.

فكانت الحجج التي تقوم عليها من القرآن الذي لا ينفذ، فلما اختلف المسلمون بعد مقتل عثمان وتعددت الفرق رقت الخطابة رقياً عظيماً، فاعتمد كل حزب عليها في نشر أفكاره وتأييد دعوته.

وأهم ما تميزت به في هذا العصر عدوبة ألفاظها ومثانة أسلوبها وقوة تأثيرها لاقتباسها من القرآن وأخذ نهجه في الإرشاد والإقناع، فتبدأ بالحمد لله والصلاة على رسوله، فقد ظل العرب على ما ألفوه في الجاهلية من لف العمامة واتخاذ المخصرة والوقوف على نشر من الأرض.

1- ينظر: أحمد حسن الزيات، تاريخ الأدب العربي للمدارس الثانوية، دار نضرة مصر للطباعة والنشر، الفجالة، القاهرة، د.ت، ص.ص.19-20.

2- ينظر: محمد مندور، الأدب وفنونه، الإدارة العامة للنشر، مصر، أغسطس 2006م، ط.5، ص.154.



وفي الأخير نستطيع القول بأن الخطابة لم تشهد ازدهارا وتطوريا وحفل خطابها بالاهتمام كازدهارها في العصر الإسلامي، وذلك راجع إلى انصراف العرب عن الشعر واهتمامهم بها، ولعل أشهر خطباء هذا العصر: الرسول ﷺ، والحجاج بن يوسف.

سمات الخطابة:

تتميز الخطابة بعدة مميزات من بينها:

1- عرف الجاهليين نوعين من الخطب الطوال والقصار، وذلك لقلّة الأغراض فيها، وعدم وجود قواعد ترتكز عليها الخطبة، كما أنهم استخدموا الإيجاز لأنه أوقع في النفس وأبلغ في التأثير عكس الكلام الطويل فهو ينسي بعضه بعضا.

2- كان الخطباء يختارون الألفاظ المتداولة والمعاني المؤثرة في القلوب والعقول، وهذا يكون عن طريق الفطرة.

3- المزج بين الإيقاع الشعري والنص النثري حتى يكون هناك مجال للراحة للخطيب والسامع في نفس الوقت، وكذلك يستطيع التأثير على السامع وشد انتباهه، فيجعله بذلك ينتقل من حالة إلى حالة، وهنا يكون الخطيب قد أثر عليه بأشد صور التأثير¹.

فطبيعة ذلك العصر تتطلب من الخطيب أن يحسن نظم الشعر وإنشائه فالخطيب هو الشاعر، ومن أشهر الخطباء نجد: قس بن ساعدة الإيادي، فكان الشاعر يتقدم على الخطيب، لذلك كان لابد للخطيب أن يتسلح بالشعر ليحفظ مكانته.

موضوعات الخطب:

حوت الخطب في العصر الجاهلي على عدّة مواضيع، وهي:

1- المنافرات والمفاخرات: المنافرة: المفاخرة: المحاكمة.

فالمنافرة والمفاخرة: هي أن يفتخر رجلان كل واحد منهما على صاحبه، ثم يحكم بينهما رجل، مثال ذلك: منافرة علقمة بن غلثة مع عامر بن الطفيل، وهما من بني عامر،

1- ينظر: هاشم صالح مناع، الشر في العصر الجاهلي، ص.39.

حيث تنافرا إلى هرم بن قطبة الفزاري¹، فالمنفور هو المغلوب، والمنافر هو الغالب، وكانت العرب تتنافر إلى حاكم، يقول زهير بن أبي سلمى:

فَإِنَّ الْحَقَّ مَقْطَعُهُ ثَلَاثٌ يَمِينٌ أَوْ نِفَارٌ أَوْ جِلَاءٌ

2- الحض على القتال: وهو أن يقف الخطيب في قومه ويحضهم على قتال الأعداء لأي سبب من الأسباب.

3- خطب إصلاح ذات البين وإطفاء نائرة الحرب وحمالة الدماء: وهي الخطب التي تعنى بإطفاء نائرة وهيجان الحروب، ومن ثم تحمل الديات كخطبة "قيس بن خارجة بن سنان" التي قالها إثر حرب داحس والغبراء.

4- خطب الإرشاد والتوجيه: وهي الخطب التي يلقيها من له منزلة رفيعة بقومه، فيقوم بنصحهم وإرشادهم إلى الخير مثل الخطب الدينية كالخطبة التي خطبها كعب بن لؤي².

5- خطب المحافل والوفود: وهي الخطب التي تلقى في الأسواق والمحافل العظام والوفادة على الملوك وتتضمن هذه الخطب مفاخر القبائل ومحاسنها ومن ذلك نجد خطب "إياد وتميم" وهما مميزان في الخطابة، وليس لأحد من العرب هذه الخصلة³.

إن خطب قس بن ساعدة رواه عنه رسول الله ﷺ إلى قريش والعرب، لأن كلام قس بن ساعدة موعظة وتوحيد واحتجاج، كما أنه أظهر فيه معنى الإخلاص وإيمانه الكبير بالبعث، لذلك كان خطيب العرب، وكان هناك أيضا قبائل وَقَدَّتْ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل قبيلة "تميم" وكانت مشهورة كثيرا بالخطابة، ومن أشهر خطبائها نجد: عمرو بن سنان التميمي، عمر الزبرقان بن بدر، عطار بن حاجب بن زرارة... وغيرهم.

6- سجع الكهان: وهو نوع خاص من ضروب الكلام خصت به الخطابة في الجاهلية ونهى عنه الإسلام.

1- ينظر: هاشم صالح مناع، الشر في العصر الجاهلي، ص.40.

2- ينظر: المصدر نفسه، ص.41.

3- ينظر: المصدر نفسه، ص.42.

وسجع الكهان وهو كلام يتكلم به الخطيب ولديه فواصل كفواصل الشعر من غير وزن، ولقد سمي بالسجع لاشتباهه أواخر الفواصل وتناسبها، فقد نهي رسول الله صلى الله عليه وسلم عن السجع لأنه صفة الكهان في الجاهلية¹.

يقول الجاحظ: «وكان الذي كره الأسجاع بعينها وإن كانت دون الشعر في التكلف والصفة أن كهان العرب الذين كان أكثر الجاهلية يتحاكمون إليهم، وكانوا يدعون الكهانة، وأن مع كل واحد منهم رأيا من الجن، مثل "حازي جهينة، وشق بن أنمار بن نزار، سطيح بن ربيعة بن مسعود بن مازن بن ذئب، عزى سلمة بن أبي حية، وأشباههم" كانوا يتكهنون ويحكمون بالأسجاع»².

يعرف "شوقي ضيف" سجع الكهان في كتابه "تاريخ الأدب العربي" فيقول: هي طائفة تزعم بأنها تطلع على الغيب، وتعرف ما يأتي به الغد بما يلقي إليها توابعها من الحب وأكثرهم كان يخدم بيوت أصنامهم وأوثانهم، فكانت بهم قداسة دينية، فكانوا يتخذونهم حكاما في خصوماتهم ومنافراتهم على نحو ما كان في منافرة "هاشم بن عبد مناف وأميمة بن عبد شمس"، واحتكامهما إلى الكاهن "الخزاعي"، فقد كانوا كثيرا ما يفسرون أحلام ورؤيا العرب، فمنزلتهم كانت كبيرة في العصر الجاهلي، إذ كانوا يعتقدون أنه يوحى إليهم، ولعل ما جعل نفوذ الكاهن تتجاوز قبيلته إلى كثير من القبائل³.

يقول الجاحظ: كان كهان العرب يتحاكم أكثر عرب الجاهلية إليهم، والكهانة هي التنبؤ بغيب المستقبل لإخبار عن الحاضر والماضي، ومن هنا كان للكهان منزلة ومكانة في كل عصر، ففي عصر الجهل كانوا يقيدون العقول والنفوس في الأفراد، وفي فترات العلم والحضارة يجيدون سلطانهم قائما في طموح النفس البشرية إلى معرفة ما غاب عنها وإن نازعتهم العقول بعض هذا السلطان». إن الكهان مضطرون إلى استعمال السجع في

1- ينظر: هاشم صالح مناع، النثر في العصر الجاهلي، ص.42.

2- ينظر: المصدر نفسه، ص.43.

3- ينظر: شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي العصر الجاهلي، ص.420.

أساليهم لأنه وسيلتهم الوحيدة في التأثير على العواطف النفسية التي سعت إليهم تطلب عندهم الأمن من أحداث المستقبل¹.

صفات الخطيب:

كان الشعراء والخطباء يفتدون إلى أسواق العرب، حيث يعرض كل واحد منهم براعته ويثبت جودته، فالشاعر بشعره والخطيب بخطبته، فكان من عادات العرب التجمع حولهم والاستماع لهم، حيث نجد بعض الشعراء تركوا بصمتهم في الشعر مثل: "النابعة الذبياني"، يقال أنه كانت تضرب له قبة في الأم، وكذلك الأمر بالنسبة إلى الخطباء، فكانوا يفقهون في أماكن بارزة ومعروفة.

كان على الخطيب أن يرتدي زيا خاصا وأخص بالذكر العمامة التي كانت من عادات العرب، واختيار مكان يليق به حتى يستحوذون على قلوب الجماهير، فكان يقف فوق أرض أو مكان مرتفع أو يركب دابة ويجول بها في المواسم العظام والمجامع الكبار ويخطب.

فكان يحمل مخصرته عند مناقلة الكلام، وأن يرفع يده ويضعها ويستعين بالإشارة على توصيل العبارة.

وما كان يزيد الخطابة حسنا وجلالة هو جهازة صوت الخطيب، فإنه من أجمل أوصاف الخطباء، وقد ذموا ضئيل الصوت.

يقول أحد الشعراء²:

إِنْ صَاحَ يَوْمًا حَسِبْتَ الصَّخْرَ مُنْحَدَرًا وَالرَّيْحُ عَاصِفَةٌ وَالْمَوْجُ يَلْتَطِمُ.

لا يلتفت في الخطابة إلى حلاوة النغمة إذا كان الصوت جهيرا مع سلامة مخارج الحروف، فلا ينبغي للخطيب أن يَحْضُر عند الرمي بأبصارهم إليه، أو يعبأ بالكلام عند

1- مصطفى السيوفي، تاريخ الأدب في العصر الجاهلي، الدار الدولية للاستثمارات الثقافية، القاهرة، مصر، د.1، 2008م، ص.250-255.

2- ينظر: هاشم صالح مناع، الشر في العصر الجاهلي، ص.46.



إقبالهم إليه، لذا يجب على الخطيب أن يتقي خيانة البديهة في أوقات الارتجال كأن يقلل التنحج، واللعب بلحيته، لأن ذلك من دلائل العي، ويشترط كذلك في الخطيب أن يكون لسانه سالما من العيوب التي تشين الألفاظ.

وفي مجمل القول فإن الخطيب الناجح هو الذي يستطيع أن يؤثر في السامعين ويجذب عيون الناظرين وإظهار ملامحه وجوارحه، وما يلزمه أيضا من عدة كأن يضع عمامة ويحمل عصي، وأن يكون قادرا على توصيل هدفه ومقاله في مقامه وعرضه إلى جانب وفرة ثقافته، وأن يلم بجميع المواضيع ذات الصلة بموضوعه، ناهيك عما يجب أن يكون فطنا وحثقا وأن يتميز بلباقة وحسن التصرف في الأفكار والأسلوب¹.

إن الخطيب هو العنصر الأساسي في تكوين الخطبة، فهو عماد نجاحها أو فشلها، فله دور أساسي في إقناع المتلقي، ولكن لتحقيق غرضه هذا يجب أن تتوفر فيه عدة شروط نذكر منها:

1- قوة الملاحظة: يجب على الخطيب أن يدرك أحوال الناس عند إلقاء خطبته أهم مقبلون عليه؟ فيرسل في قوله، ويستمر في نهجه، أو هم معرضون عنه؟ لذا يجب أن تكون نظرتهم كاشفة لوجوه سامعيه ولأحوالهم وملامحهم، وبذلك يستطيع أن يغير من نشاطه وأن يربط روحه بروحهم.

2- حضور البديهة: يجب على الخطيب أن يكون فطنا حذقا، أي أن يعرف التصرف وقت الحاجة، فمثلا أن يسعف بالعلاج المطلوب إن وجد من القوم إعراضا، والدواء الشافي إن وجد منهم اعتراضا، أي إذا ألقى الخطيب خطبته وعقب عليه السامعين يجب عليه أن تحضر البديهة وأن يجاوب على المسألة، حتى لا تدفع به إلى الزلة وتضيع الخطبة.

3- طلاقة اللسان: اللسان أداة الخطيب الأولى، فلا بد أن تكون الأداة السليمة كاملة ليتسنى له استعمالها على أكمل وجه، فزلاقة اللسان وفصاحته وبلاغته هي ركن الخطابة الوحيد.

1- ينظر: هاشم صالح مناع، الشر في العصر الجاهلي، ص. 47-49.



4-رباطة الجأش: يجب أن يقف لخطيب مطمئن النفس، غير مضطرب، حتى يستطيع التأثير في مستمعيه، فإذا أحسوا بضعفه واضطرابه صغر في نظرهم، وهان هو وكلامه في أعينهم، وبذلك يذهب كلامه هباءً منثوراً¹.

5-القدرة على مراعاة مقتضى الحال: مراعاة مقتضى الحال لب الخطابة وروحها، فلكل مقام مقال، ولكل جماعة من الناس لسان ستخاطب به، فالجماعة الهائجة الثائرة تخاطب بالعبارات الهادئة لتكون برداً وسلاماً على القلوب، والجماعة الفاترة تخاطب بعبارات مثيرة، موقضة للهمم، حافزة للعزائم، والجماعة التي شطت وركبت رأسها، تخاطب بعبارات فيها قوة العزم ونور الحق... وغيرها من الصفات، لذلك يجب على الخطيب أن يكون قادراً على إدراك الجماعة وما تقتضيه، والإتيان بالأسلوب الذي يلائمه.

هذه الصفات الخمس لا يعد الخطيب خطيباً إذا لم تكن فيه كاملة أما الصفات الآتية فتفاوتت فيها أقدار الخطباء بمقدار ما ينالون منها وهي:
أ/ قوة العاطفة: لا يتأثر إلا المتأثر، ولا يثير الحماسة في قلوب السامعين إلا من امتلاً حماسة فيها يدعو إليه، واعتقاداً بصدقه، لأن ما يخرج من القلب يدخل القلوب من غير استئذان.
فالعواطف عبارات وأساليب تلهب الحس وتوقظ النفس، فلا بد أن تكون حماسة الخطيب أقوى من حماسة سامعيه.

ب/ النفوذ وقوة الشخصية: هي هبة من الله سبحانه وتعالى، يهبها بعض الناس، ترى كل من يلقاه يحس بقوة روحه، وعظم نفسه، فتستمد كلماته من نفسه قوة، صوته يهز النفس هزات روحية تجعلها تلقف عباراته، فإذا وهب الله خطيباً تلك الروح قاد الجماهير وساقها بعضاً موسى، فلا تشرد منه شاردة فهي كما ترى صفة للنوع الكامل من الخطباء، وقد أتى الله بعض خطباء العرب أشطراً من هذه القوة كأكثم بن صيفي في الجاهلية، وأبي بكر،

1- ينظر: الإمام محمد أبو زهرة، الخطابة، أصولها تاريخها في أزهر عصورها عند العرب، دار الفكر العربي، الكويت، ط.2،

وعمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، والحسن البصري في الإسلام، ناهيك عن ما كان عليه الرسول ﷺ من قوة الروح، فذلك نور النبوة وعبقة قدسية¹.

ج/ أن يكون ثقة: إذا اشتهر الخطيب بسوء أو بنقيض ما يدعوا إليه كان من حاله لسان يناقض مقاله، فيضعف تأثيره، ولا يصل إلى قلوب الناس تفكيره ويشك السامعون في قوله، فالخطيب الذي لم يمنح الثقة فلا بد عليه من عملين مرتقاهما صعب:

1/ عليه أن يجتهد في جلب الثقة.

2/ عليه بعد ذلك أن يسوق كلامه في صورة محبة مثيرة، وذلك في قدرته إن تمكن من الأول.

د/ التجميل في الشارة والملابس: قال أستاذنا الشيخ محمد المهدي بلل الله ثراه: هذا وإن لم يكن من الصفات التي تقوم عليها الخطابة أمر تجب العناية به لأنه مطمح الأنظار، والنظر يفعل في القلب كما يفعل الكلام في السمع، فهو بذلك لا ينقص إعتباره عن اعتبار الصفات الأصلية، ألا ترى أن معاوية لما رأى النخار مرتديا عباءة رثة أنكر مكانه حتى اضطر النخار إلى أن يقول: "إن العباءة لا تكلمك إنما يكلمك من فيها".

هـ/ سعة الاطلاع: قال الأستاذ مهدي رحمة الله عليه: إن الخطابة ليس لها موضوع خاص تبحث عنه وهو بمعزل عن غيره، بل ترتبط بكل شيء من شؤون الناس في دينهم ودنياهم، فكما يكون الكاتب ملم بكل صنف من صنوف المعارف كذلك يكون الخطيب، أي أنه يجب أن يلم بكل ما له صلة بالجماعة التي يخاطبها ليعرف نواحي التأثير، والمواطن التي يطرق حسها من ناحيتها².

أشهر الخطباء:

1- ينظر: الإمام محمد أبو زهرة، الخطابة، أصولها تاريخها في أزهر عصورها عند العرب، ص.58.

2- ينظر: المصدر نفس، ص.ص.59-60.



إذا رجعنا إلى كتب التاريخ والأدب نجدها حافلة بعدد غفير من الخطباء المشهورين الذين كان لهم تأثير قوي في حياة العرب في الجاهلية، فمنهم من عرف بتحريضه على القتال، ومنهم من اشتهر بالمنافرات والمفاخرات، ومنهم من برز في إصلاح ذات البين والدعوة إلى التوحيد... وغيرها من الأغراض، حيث نجد كل قبيلة حريصة على اتخاذ خطبائها وشعرائها الذين هم عماد القبيلة، فكانوا يتنافرون ويتفاخرون ويدافعون عن مكانة القبيلة سواء في الأسواق العربية أو الحروب أو في أماكن أخرى.

فمن أشهر الخطباء في مكة نجد: "عتبة بن ربيعة" و"سهيل بن عمرو الأعلم" الذي قال فيه عمر بن الخطاب رضي الله عنه للرسول صلى الله عليه وسلم: "يا رسول الله إنزع ثنيتيه السفليين حتى يدلع لسانه فلا يقوم عليك خطيباً أبداً، فقال "رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا أمثل فيمثل الله بي، وإن كنت نبياً دعه يا عمر! فعسى أن تقوم مقاماً تحمده".

وهناك أيضاً من الخطباء "هاشم بن عبد مناف" و"نفيل بن عبد العزى" جد عمر بن الخطاب، أما في المدينة فنجد "قيس بن شماس" من الأنصار وابنه "ثابت" خطيب الرسول صلى الله عليه وسلم، و"سعد بن الربيع"، وهو الذي اعترضت ابنته الرسول صلى الله عليه وسلم، فقال لها: من أنت؟ فقالت: ابنة الخطيب النقيب الشهيد "سعد بن الربيع"¹.

لقد ورد في كتاب البيان والتبيين للجاحظ وغيره من كتب الأدب أسماء طائفة كبيرة من الخطباء الذين اشتهروا بالفصاحة ووضوح الدلالة والبيان عما في أنفسهم، مما جعل الأسماع والقلوب تهمس إليهم، وتشيع في الآفاق ذكرهم، فكانوا ينتشرون في الجزيرة ومكة والمدنية.

ففي مكة كانت هناك دار تسمى دار الندوى، وهي أشبه بمجلس شيوخ مصغر، كان يجتمع فيه سادة العشائر، يتشاورون في شؤونهم ويتحاورون ويتخاطبون، ومن أشهرهم نجد: "عتبة بن ربيعة" وهو خطيب قريش ونجد "هاشم وأميمة" و"نفيل بن العزى" جد عمر بن الخطاب.

1- ينظر: هاشم صالح مناع، الشر في العصر الجاهلي، ص. 49-50.



أما في المدينة فذكر الجاحظ "قيس بن شماس" و"سعد بن الربيع" أما في البادية أي القبائل الأخرى فممن اشتهروا فيها نجد: "ابن عمار الطائي" و"هانئ بن قبيصة" و"زهير بن جداب" ... وغيرهم¹.

أما خطباء القبائل فأشهرهم "عمرو بن عمار الطائي" و"هانئ بن قبيصة"، خطيب بكر في يوم ذي قار، وكانت الغلبة لقومه على العجم، و"زهير بن جناب الكلبي"، و"ربيعة بن جدار الأسدي" خطيب بني أسد، و"عامر بن الظرب العدواني" كان حكيما ورئيسا وخطيبا وحكم العرب بعكاظ والجاهلية، وقيل: «لم تجتمع معد كلها إلا على ثلاثة رهط من رؤساء العرب وهم: عامر بن الظرب، وربيعة بن الحارث، وكليب بن ربيعة، وكان عامر قائد معد يوم البيداء».

يعني عامر الظرب الذي كان حكما للعرب تحتكم إليه، ويقال أنه لما أسن واعتراه النسيان أمر ابنته أن تقرع العصا إذا هوفة عن الحكم أي نسيه².
ومن الخطباء البلغاء نجد "أكثم بن صيفي"، وكان حكيما العرب وخطيب تميم، و"الهرم بن قطبة بن يسار الفزاري"، وهو أحد حكام العرب وصاحب الحكم المعروف بين "علقمة وعمار بن الطفيل"، حين تنافرا يقول الشاعر:

قَضَى هَرَمٌ يَوْمَ الْمَرِيرَةِ بَيْنَهُمْ قَضَاءَ امْرِئٍ بِالْأُولِيَّةِ عَالِمٌ
قَضَى ثُمَّ وَلَّى الْحُكْمَ مَنْ كَانَ أَهْلِهِ وَلَيْسَ ذُنَابِي الرِّيشِ مِثْلَ الْقَوَادِمِ

ويقال أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه نظر إلى الهرم بن قطبة وقد عرف تقديم العرب له في الحكم والعلم، وسأله عن منافرتة بين علقمة وعمار، فلما أجابه قال له: "لهذا العقل تحاكت العرب إليك".

ومن خطباء غطفان في الجاهلية نجد: خويلد بن عمرو يوم الفجار والعشراء ونجد كذلك قيس بن خارجة بن سنان الذي كان خطيب داحس والغبراء¹

1- ينظر: شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في النثر العربي، ص. 20-31.

2- ينظر: هاشم صالح مناع، النثر في العصر الجاهلي، ص. 51-52.

ومن خطباء تميم نجد "عمرو بن الأهمم"، وهو الذي قيل فيه: «إنما شعره حُلَلٌ منشرة بين أيدي الملوك، تأخذ منه ما شاءت»، ولم يكن في بادية العرب في زمانه أخطب منه. أما الخطباء الذين يدعون الكهانة، وأن مع كل واحد منهم رئيسا من الجن، فمنهم: خازي جينة، عَزَّى سلمة، هرم بن قطبة، الأقرع بن حابس، نفيل بن عبد العزَّى، وغيرهم، فكانوا كلهم يحكمون وينفرون بالأسجاع، ويقال: "إن أكهن العرب وأسجعهم عزى سلمة"².

مكانة البلغاء:

قد يصعب الأمر على القارئ إذ تطلب منه الحكم على مكانة الشعراء ومكانة البلغاء، فهذا الأمر ليس سهلا، ولكن للكشف عن حقيقة هذا الأمر لابد من تسليط الضوء على النثر، فهو المعنى بالدراسة.

يقول أبو عمرو بن العلاء: «كان الشاعر في الجاهلية يقدم على الخطيب لفرط حاجتهم إلى الشعر الذي يقيد عليهم مآثرهم، ويفخم شأنهم، ويهول على عدوهم ومن غيرهم، ويهيب من فرسانهم، ويخوف من كثرة عددهم...»، فلما كثر الشعر والشعراء، واتخذوا من الشعر مكسبة، ورحلوا إلى السُّوق، وتسرعوا إلى أغراض الناس، صار الخطيب عندهم فوق الشاعر³.

يناقش المرزوقي قضية تأخر الشعراء عن رتبة البلغاء بإسهاب ويرجع ذلك إلى ما يلي:

1/ أن ملوك العرب قبل الإسلام وبعده كانوا يتبجحون بالخطابة والتفنن فيها ويعدونها أكمل أسباب الرياسة، وأفضل آلات الزعامة، فإذا وقع أحد في وسط قوم لحصول تنافر أو

1- ينظر: هاشم صالح مناع، النثر في العصر الجاهلي، ص. 52-54.

2- ينظر: المرجع نفسه، ص. 55.

3- ينظر: المرجع نفسه، ص. 55.



تضاعن، فأحسن الاقتضاب عند البداهة، ونجح في الإطالة أو غير ذلك، مما تدعو الحاجة إليه.

2/ كان الملوك يأنفون من الاشتهار بغرض الشعر، ويدونه دناءة، ما دعى حجر بن عمرة أن ينهى ابنه امرئ القيس عن قول الشعر، ما أخرجه إلى أن أمر بقلته، وقصته مشهورة، مما يؤكد رأي المرزوقي في رفع مرتبة البلغاء عن الشعراء¹.

3/ إن الشعراء اتخذوا من الشعر مكيبية وتجارة، حيث تعرضوا لأعراض الناس، فوصفوا اللئيم عند الطمع فيه بصفة الكريم، حتى قيل: "الشعر أدنى مروءة السري، وأسى مروءة النبيء".

4/ إذا كان شرف الصانع بمقدار صناعته، وكان النظم متأخرا عن رتبة النثر وجب أن يكون الشاعر أيضا مختلفا عن غاية البلوغ.

مما يدل على أن النثر أشرف من النظم لأن الإعجاز من الله تعالى والتحدي من الرسول ﷺ، فلما كان زمن النبي ﷺ زمن الفصاحة والبيان جعل الله معجزته من جنس ما كانوا يولعون به، وبأشرفه، فتحداهم بالقرآن كلاما منثورا لا شعرا منظوما.

وقد قال الله عز وجل: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ﴾²، ويختتم المرزوقي في قوله: لما كان الأمر على ما بيناه وجب أن يكون النثر أرفع شأنًا وأعلى سمكا وبناء من النظم، وأن يكون مزاولة كذلك، اعتبارا بسائر الصناعات وبمزاوليها³.

لقد أجمع كاتبنا في كتابه هذا على العديد من النماذج الخطابية، حيث وضع كل نموذج في موضوع خاص به في موضوعات الخطب، والتي تم الإشارة إليها سابقا، وقام بدراستها وعناوينها كالاتي: المنافرات، الحض على القتال، إصلاح ذات البين، خطب المناسبات الاجتماعية، خطب المحافل والوفود، خطب الإرشاد والتوجيه، وأخيرا سجع

1- ينظر: هاشم صالح مناع، النثر في العصر الجاهلي، ص56.

2- سورة يس، الآية69.

3- ينظر: هاشم صالح مناع، النثر في العصر الجاهلي، ص.57.



الكهان، ولكن خصصنا دراستنا على ثلاث نماذج من الخطب وهي: المنافرات، خطب الإرشاد والتوجيه، خطب الكهانة.

بداية نبدأ مع خطبة المنافرات التي قام مؤلفنا بدراسة تحليلية وعنوانها هو: منافرة عبد المطلب بن هاشم وحرب بن أمية وبدايتها كنت كالأتي: «تنافر عبد المطلب بن هاشم وحرب بن أمية إلى النجاشي ملك الحبشة...»

فالفكرة العامة التي تدور حولها الخطبة هي قضية الاحتكام إلى حكم يحكم بين الطرفين المتنازعين، وهما عبد المطلب بن هاشم وحرب بن أمية، أما مضمون هذه الخطبة، فيتحدث عن منافرة عبد المطلب بن هاشم، وحرب بن أمية، حيث حكم بينهما نفيل بن عبد العزى الذي ابتدر حرباً بقوله: «يا أبا عمرو! أنافر رجلاً هو أطول منك قامة؟!» وهذا الاستفهام إنكاري والغرض منه هو أنه أعظم منك قدراً وهامة، وقال فيه كذلك أموراً كثيرة فيما يتعلق بالعقل والإنصاف والكرم... إلخ¹.

ثم يلتفت إلى حرب بن أمية ويقول له: إنني في هذا الحكم لعبد المطلب بن هاشم لا أنقصك قدراً ولا أحط من شأنك، فأنت بعيد الغضب، أي أنك لك إذا غضبت من ينصرك، ويؤيدك، ويمشي وراءك إلى غيرها من الصفات، ولكن يقول له نافس مغلباً مشهوداً له بالغبلة والفضل.

فغضب حرب وقال قولته الشهيرة متحجياً عن هذا الكلام: «إن من انقلاب الزمان ونتقاضه، أن تكون يا نفيل حكماً»، ومعنى هذه المقولة أنه رفض الحكم الذي أصدره الحاكم.

أما بالنسبة إلى الأسلوب فقد كانت الألفاظ في هذا النص مختارة موحية، تفرع أسماعنا مثل قرع الطبول، وذات موسيقى عنيفة، وإيقاع مجلجل كما في قوله: «أطول قامة»، «أعظم هامة»... إلخ.

1- ينظر: هاشم صالح مناع، الشر في العصر الجاهلي، ص. 59-60.



فكانت هذه المنفرة تعتمد على الأسلوب الإنشائي الذي يخرج في أغلب الأحيان الاستنكار أو التقرير كما في النداء مثل: "يا أبا عمرو!" والاستفهام "أتنافر؟!" كما أننا لا ننسى أن كاتبنا أبدع في هذه المنفرة، حيث استعمل العديد من العبارات الموحية المؤكدة بمؤكدات متنوعة، والكناية التي شاعت في النص لا تعدو الحقيقة، إذا قلنا: إن نفيلاً هذا كنى في أكثر عباراته عن مدلولات، مما جعل الأسلوب أبعد أثراً وأعمق غوراً في النفوس. أما بالنسبة إلى العاطفة المتجسدة في النص فكانت واقعية صادقة، لأنها تفصل بين خصمين، فهي عنيقة ومؤثرة، حسب طبيعة الموضوع، وحتى يظهر لنا الحاكم مدى قدسية القضاء الذي سيحكمه، ومن أجل هذه الواقعية لم نجد مجالاً للخيال في هذا النص، وما ورد من الأساليب البلاغية كان عفويا غير متكلف¹.

2- خطب الإرشاد والتوجيه: والتي ألقاها الخطيب قس بن ساعدة الإيادي في سوق عكاظ، ونعني بها خطب التأمل والنصح، وهي من بين الخطب التي تم إلقاؤها في الأسواق المعتمدة عند العرب، مثل سوق عكاظ، والتي جاء مطلعها كالاتي: «أيها الناس اسمعوا وعوا، من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آت آت...».

فالفكرة التي تدور حولها هذه الخطبة هي حتمية الموت، حيث نجد الخطيب من أول النص إلى آخره يتحدث عن هذه الحتمية، وهو بحديثه هذا نجده يعطي فرصة إلى الناس ليرشدتهم، ويوجههم للتأمل في هذا الكون، الذي يدل على قدرة الخالق العظيم.

أما ما يخص مضمون هذه الخطبة فإننا نجد الخطيب قس بن ساعدة يتحدث عن مظاهر الكون، والتي تشير إلى قدرة الله عز وجل، مدعماً أفكاره بالعديد من الأمثال، ويستشهد بالتاريخ ممثلاً بعباد وثمود وبالآباء والأجداد... إلخ.

لقد استطاع قس بن ساعدة أن يصوغ المعاني الثرية إلى كلام موزون منظوم، مدللاً على ذلك على عمق عقيدته وخالص إيمانه بالله الواحد الأحد، حيث نجد الخطيب يبكي

1- ينظر: هاشم صالح مناع، الشر في العصر الجاهلي، ص. 61-63.



نفسه، وهو يرى مصيره الزائل، ويصوغ كلامه شعرا حتى يكون له عبرة في النفوس وأثرا خالدا على الزمن.

أما بالنسبة إلى الأسلوب فيتميز بالرصانة والانتقاء، فنجده قد استند إلى الإيقاع الصوتي كثيرا من الطباق والجناس والمقابلة والسجع وحسن التقسيم، فمثلا الجناس الناقص كقوله: "اسمعوا وعوا"، والطباق كقوله: "عاش/ مات" والمقابلة "ليل داج وسماء ذات أبراج"¹.

لقد راوح الخطيب في أسلوبه بين الخبر والإنشاء ليكون أعمق أثرا، وأكثر دلالة، فيبتدئ خطبته بالنداء قوله: "أيها الناس" ليلفت الأنظار إليه، ثم الأمر "اسمعوا وعوا" الذي خرج إلى معنى شد الانتباه، ثم بعد ذلك يستخدم الحكمة قوله: "من عاش مات ومن مات فات"، والغاية منها إظهار الحقيقية وإثبات الواقعية للناس حتى تخرج عن احتمالية الكذب. فالغاية من كل هذه الأخبار هي الخروج إلى النصح والإرشاد وحسن التذكر، وبعد ذلك نجده يعود إلى الأسلوب الإنشائي، مستعملا كل من النداء والقسم والوصف... إلخ. أما فيما يخص الشعر فقد استخدم التأكيد، لأنه هو أفضل صفات الخطيب الناجح، وبالنسبة إلى العاطفة فقد كانت واقعية حقيقية، لأن الخطيب استعمل الأسلوب العلمي المتأدب في هذا النص مع الطريقة المنطقية المدعمة بالحجج والبراهين الواقعية. لم يتمكن الخطيب أن يلحق الخيال في هذا النص لأنه يتنافى مع واقعية النصح والإرشاد².

- سجع الكهان:

1- ينظر: هاشم صالح مناع، النثر في العصر الجاهلي، ص. 87-91.

2- ينظر: المرجع نفسه، هاشم صالح مناع، النثر في العصر الجاهلي، ص. 91-94.



لقد تكهن شافع بن كليب الصدي في بظهور النبي ﷺ، والتي كان مطلعها: «قدم على تبع الآخر ملك اليمن، قبل خروجه لقتال المدينة شافع بن كليب الصدي، وكان كاهنا....» فالفكرة التي تدور حولها هذه المناقشة هي الحوار الذي جرى بين ملك اليمن والكاهن شافع الصدي، وهي من سجع الكهان، وتتجلى هذه الفكرة في إقناع ملك اليمن بأن النبي ﷺ أعلى ملكا وأرسخ قدما، وأن ذلك مذكور في الكتب السماوية.

أما بالنسبة إلى مضمون هذه الخطبة فإنه يدور حول الحوار الذي دار بين ملك اليمن والشافعي، حيث أقر اليمني بعظمة ملكه وأنه لا يوجد ملك يوازي ملكي، فرد عليه الكاهن شافع بل إنه يوجد وهو ملك النبي ﷺ الذي جاء وصفه في التوراة والزبور، وبعد ذلك يقر ملك اليمن بذلك، وتنتهي المناظرة.

تميز الأسلوب الذي جاء في هذه الخطبة بالبساطة والوضوح والإيجاز، فاستعمل في أسلوبه السجع والطباق وحسن التقييم... إلخ من المحسنات البديعية. إن العاطفة التي تجلت في النص كانت صادقة، لأنها انتهجت الأسلوب الواقعي، ومؤثرة لأنها أسلوب ديني استطاع أن ينقل قناعات المتحاورين إلينا في هدوء مما أدى إلى إيمان ملك اليمن بعد أن نظر إلى الزبور بصدق الرسالة المحمدية.

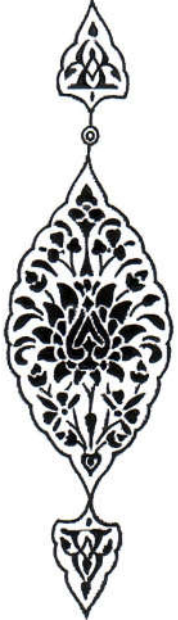
أما بالنسبة للخيال فلم يوجد في النص إلا ما جاء من الكاهن عفو الخاطر¹.

1- ينظر: هاشم صالح مناع، الشر في العصر الجاهلي، ص. 95-98.

عَرَضٌ وَتَقْدِيمٌ

الفصل الثالث:

الوصايا





الفصل الثالث

الوصايا

يرى الكاتب أن الوصية تتفق مع الخطبة من خلال توجيه المتلقي إلى الطريق الصحيح، لكنهما تختلفان من حيث المتلقي، فالخطبة تكون على ملاءم الناس غالباً، حتى تعم الفائدة، أما الوصية فتوجه إلى إنسان معين في زمن معين، وقد تكون هذه الوصية صالحة لشخص آخر في زمن آخر إذا توافقت المناسبة، كما أن الوصية تتفق مع الكهانة بحيث أنهما تخصان شعب معين في زمن معين، وتختلفان من حيث الموضوع والأسلوب، إلا أنهما ضرب من ضروب الخطابة¹.

يمتد تواصل الوصية وتطورها عبر العصور الأدبية، فقد زخر الأدب الجاهلي بوصايا عديدة عكست وجود الإنسان العربي في الجاهلية في سلمه وحره، فبين علاقته بمجتمعه²، وكان ذلك بالدعوة إلى التحلي بمكارم الأخلاق والحفاظ على طبائع للعرب وشيمهم، ونشر الموعظة لأخذ العبر عن طريق نقل تجارب الحياة باستعمال الحكم.

وكانت هذه الوصايا موجهة من الآباء إلى الأبناء، ووصايا أخرى موجهة من أم لابنتها، وأخرى من سيد قوم إلى عشيرته.

إن الوصايا تنقسم إلى نوعين:

1/ وصايا الأحياء للأحياء: وهي أدب وأمر بمعروف ونهي عن منكر وتحذير من زلل وتبصرة بعمل صالح.

2/ وصايا الأموات للأحياء عند الموت: بحق يجب عليهم أداؤها ودين يجب عليهم قضاؤه.

1- ينظر: هاشم صالح مناع، النثر في العصر الجاهلي، ص.ص. 107-108.

2- ينظر: حسين عبد الجليل يوسف، الأدب الجاهلي قضايا وفنون، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط. 2، 1443هـ-2003م، ص. 08.



وقد يتداخل هذان النوعان في الوصية الواحدة، إلا أننا نستطيع التمييز بينهما في معظم الوصايا والنوع الثاني من هذه الوصايا أحكام شرعية واختلافات فقهية، وقد صنفت الكتب الكثيرة في أحكام الوصية في الشرع الإسلامي، وفي القوانين الوضعية¹.
لقد بدأ الكاتب هذا الفصل بتحديد مصطلح الوصية إذ هي: «ضرب من ضروب الخطب، والوصية: ما أوصيت به... سميت الوصية وصية؛ لاتصالها بأمر الميت... والوصية ما يوصي به شخص لآخر عند السفر أو الزواج أو الموت... والوصية المقصودة هي النابعة من الموصي لآخر عند السفر أو الزواج أو الموت... والوصية المقصودة هي النابعة كم الموصي نتيجة تجاربه النظرية والعلمية بأسلوب فني متميز تركز على الإرشاد والتوجيه والتمسك بالأخلاق الحميدة»².

أما الوصية في اللغة فهي من: « وَصَى، كَوَصَى: حَسَّ بَعْدَ رَفْعَةٍ، وَاتَّزَنَ بَعْدَ خِفَّةٍ، وَاتَّصَلَ وَوَصَلَ، وَ. الأَرْضُ وَصِيًّا وَوَصِيًّا وَوَصَاءً وَوَصَاءَةً: اتَّصَلَ نَبَاتًا. وَأَوْصَاهُ وَوَصَّاهُ تَوْصِيَةً: عَهْدَ إِلَيْهِ، وَالاسْمُ: الْوَصَاةُ وَالْوَصَايَةُ، وَالْوَصِيَّةُ، وَهُوَ الْمَوْصَى بِهِ أَيْضًا. وَالْوَصِيُّ: الْمَوْصِي وَالْمَوْصَى، وَهِيَ وَصِيٌّ أَيْضًا ج: أَوْصِيَاءٌ، أَوْ لَا يُثَنَّى وَلَا يُجْمَعُ وَ ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ﴾³، أَي: يَفْرِضُ عَلَيْكُمْ... وَالْوَصَاةُ وَالْوَصِيَّةُ: جَرِيدَةُ النَّحْلِ يُحْزَمُ بِهَا ج: وَصَى. وَوَصِيٌّ وَيَوْصِي: طَائِرٌ»⁴.

ورد في لسان العرب أَنَّ وَصِيَّ: أَوْصَى الرَّجُلَ وَصَاهُ، عَهْدَ إِلَيْهِ⁵.

أما الوصية في الاصطلاح ما يوصي به المرء -ذكرًا كان أو أنثى- أصله وذويه عندما ينزل به حدث الموت أو يستشعره، فيما يتصدقون به مما ترك من مال ومتاع لإيفاء

1- إميل ناصيف، أروع ما قيل في الوصايا، دار الجبل، بيروت، د.ط، 1999م، ص.54.

2- ينظر: هاشم صالح مناع، النثر في العصر الجاهلي، ص.107.

3- سورة النساء، الآية 11.

4- الفيروز آبادي، القاموس المحيط، تح.مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، الطبعة: الثامنة، 1426 هـ - 2005 م، ص.1343.

5- ينظر: ابن منظور، لسان العرب، ص.1.



دين أو سد مغرم، وما ذلك من الأمور التي تتعلق بذمة الوصي، وهي ما تسمى بالوصية الشرعية¹.

اتّصلت الوصية منذ القديم بحياة الناس، وذلك لحاجة الإنسان إليها عبر العصور لتنظم شؤون حياته كلها، وضبط أموره، حتى يستقيم سلوكه في المجتمع، فبعدما أوردنا تعريفات موجزة حول الوصية نتطرق إلى دراسة ما اندرج ضمن الكتاب من وصايا. اختار لنا الكاتب أربع وصايا مبدءاً بوصية "ذي الإصبع العدواني لابنه"، ثم وصية "عمرو بن كلثوم لبيه"، ثم وصية "أكثم بن صيفي التميمي إلى طيء"، ثم وصية "أمارة بنت الحارث إلى ابنتها أم إياس"، وقد اخترنا في دراسة هذا الكتاب وصية "ذي الإصبع العدواني" ووصية "أكثم بن صيفي" لتنوع موضوعهما، فالأولى وصية الموت للابن، والثانية وصية سيد قوم إلى عشيرته، وتطرقنا أيضاً إلى دراسة وصية "أمارة بنت الحارث" لابنتها "أم إياس"، إذ تختلف هذه الأخيرة عن الوصيتين، كما تطرقنا من خلال دراستنا لها لموضوع خصائص أدب النساء في الجاهلية.

1/ وصية ذي الإصبع العدواني:

الوصية التي مطلعها: «يا بني، إن أباك قد فني وهو حي، وعاش حتى سئم العيش، وإني موصيك...»².

لكن قبل أن نتطرق إلى مضمونها نذكر أننا عرفنا الوصية في موروثها الديني، حيث نذكر وصية لقمان لابنه، والتي ذكرها القرآن الكريم: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (13) وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (14)﴾³، عند ولوجنا لدراسة هذه الجزئية ارتأينا أن نربطها بوصية لقمان الحكيم الذي ذكره الله في قرآنه

1- ينظر: هاشم صالح مناع، النثر في العصر الجاهلي، ص.108.

2- المرجع نفسه، ص.109.

3- سورة لقمان، الآيتين: 13-14.



الكريم، إذ يتضح لنا من خلال قصته حرص الأب على هداية ابنه لأن ذلك من مسؤولية الآباء، حيث جاءت النصوص في القرآن والسنة تدل على ذلك، الوصايا شاملة لما يحتاجه بدءاً من دعوته إلى عقيدة التوحيد، حيث لا يصح الإيمان إلا بها، ثم دعوته إلى إقامة الصلاة، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

تشارك الوصيتان في حرص الأب على هداية ابنه، وذلك بأسلوب الموعظة الحسنة وإظهار الرأفة والرحمة للأبناء، كما أن الوصايا تعتبر أسلوباً حياً نابع من رجل مرت عليه تجارب الحياة، إضافة إلى أن ذو الإصبع أجمل في وصيته كل ما زين الرجل العربي من طيب أخلاق وحسن صفات.

وبالعودة إلى وصية ذي الإصبع العدواني فالكاتب بعدما ذكر لنا الوصية راح يستخلص الفكرة العامة من الوصية إذ تدور حول دعوة أسيد للتمسك بالنصائح المذكورة لبلوغ السيادة في قومه وحثه على التمسك بالأخلاق الحميدة.

ثم توجه إلى استخلاص مضمون الوصية وجعلها في نقاط أهمها ما يلي¹:

- أ- التواضع في تعامله.
- ب- سماحة الوجه لكسب طاعتهم.
- ج- مشاركتهم في كل شيء.
- د- إكرام الصغار لينشئوا على حبه.
- هـ- بذل المال دون انتظار مقابل.
- و- العرض والشرف.
- ز- الرفع من قدر الجار.
- ح- إكرام الضيف.
- ط- إجابة المحتاج والمنادي.

1- ينظر: هاشم صالح مناع، النثر في العصر الجاهلي، ص.ص. 110-111.



كما وصى ابنه بالتمسك بالوصايا فإن فعلت ذلك كله بابني فلن يتقدم بك الأجل ساعة ولن يتأخر، لأنه محتوم ومحدد...

ثم يتبع الأب وصيته بشعر¹:

أُسَيْدُ إِنْ مَالًا مَلَكَ تَ فَسِرُ بِهِ سَيْرًا جَمِيلًا
 آخِ الْكِرَامِ إِنْ اسْتَطَعْتَ تَ إِلَى إِخَائِهِمْ سَبِيلًا
 وَاشْرَبْ بِكَأْسِهِمْ وَإِنْ شَرِبُوا بِهِ السُّمَّ الْمَثِيلًا
 أَهْنِ اللَّئَامَ وَلَا تَكُنْ لِإِخَائِهِمْ جَمَلًا ذُلُولًا
 إِنْ الْكِرَامَ إِذَا تُوَا خِيَهُمْ وَجَدْتَ لَهُمْ فُضُولًا

نجد الكاتب ينتقل إلى أسلوب ذي الإصبع العدواني: حيث يرى أنه أسلوب موجز تجنب الحشو فيه، والإطناب وأنه يعتمد الحكمة وفصل الخطاب، كما وصفه بالواقعي الذي لا مجال فيه للخيال، ولم ينس الكاتب أن يتحدث عن البلاغة في نصّه، فقد كانت عفوية ليس فيها تصنع ولا تكلف، ثم يورد أمثلة بداية بالأساليب (يا بني!) أسلوب إنشائي خرج إلى التحبب والتدليل، ثم يورد بعض الكنايات مثل قوله: (حفظته): هي كناية عن الصيانة وفي قوله: (ابسط لهم وجهك) كناية عن سماحة اللقاء وطيب المقابلة، ثم نجده يقف عند الإستعارة في قوله: (يرفعوك) استعارة مكنية شبه المعنوي وهو الاحترام ورفع المقام بالمادي الذي ترفعه إلى مكان عال، ثم ينصرف الكاتب إلى المحسنات من طباق في قوله: (فني وهو حي)، وسجع في قوله: (يجبوك ويرفعوك)، ثم الأساليب كقوله (آخ) في البيت الثاني للنصح والإرشاد².

ثم ينتقل إلى³:

1- هاشم صالح مناع، النثر في العصر الجاهلي، ص.110.

2- ينظر: المرجع نفسه، ص112-113.

3- ينظر: المرجع نفسه، ص.115.



- **العاطفة:** حيث يبين الكاتب كيف أن عواطف "ذو الإصبع العدواني" صادقة صبت من خلالها خلاصة حياته خلقا أدبا وعلميا وعملا، حربا وسلما لابنه الكبير الذي سيخلفه في سيادة القبيلة.

- **الخيال:** إذ أوضح أن الخطاب لم يكن شديد الميل إلى الخيال لأنه واقعي رصين موجز لكن تخللته بعض الأساليب البلاغية والمحسنات التي لم يتكلفها الخطيب، بل جاءت تعبيرا عن حسه المرهف ولعبت دورا بارزا في الخيال.

- **الموسيقى:** فقد كانت الأبيات من المجزوء الكامل المرفل انتهت بألف الإطلاق التي يجد فيها الشاعر استراحة لما تجمع في صدره من حنين وحب يسديهما في وصيته الخالدة إلى والده.

2/ وصية أكنم بن صيفي التميمي إلى طيء:

الوصية التي مطلعها: «أوصيكم بتقوى الله، وصله الرحم...»¹، ووجهها إلى أهل قبيلته.

فالكاتب بعدما ذكر لنا الوصية راح يستخلص الفكرة العامة للوصية ومضمونها، فأكنم جمع جملة من الوصايا التي تدعو لمجتمع مثالي يقوم على حياة دينية اجتماعية وأخلاقية تسودها جل الأخلاق الفاضلة من محبة وتضحية... إلخ، وبعدها ذكر الكاتب الوصية انصرف إلى مضمونها فأكنم بدأها بتقوى الله أي تتبع المرء للعمل الصالح ثم صلة الرحم هم (ذوي القرابة والنسب)، فمن كان يؤمن بالله واليوم الآخر عليه بصلة، ثم يحذر من نكح الحمقاء، فنكاحها (غرر) أي خادع ومصير ولدها الضياع، ثم ينتقل إلى الخيل مبينا منافعها مطالبًا بإكرامها واصفا إياها بالحصن ضد العدو، كما يطلب إكرام الإبل لما لها من قيمة في سهر النساء وسبب الإصلاح في دفع الديان، كما تعتبر غذاء، فلبنها نادر كما أنها مطيعة يقودها الطفل الصغير، وتستجيب لكل أمر².

1- هاشم صالح مناع، النثر في العصر الجاهلي، ص. 126.

2- ينظر: المرجع نفسه، ص. 126-128.



- كما يبين الكاتب كيف أن أكثرهم اعتمد في وصيته على الحكم والأمثال مستشهدا بذلك واقفا بالشرح عند كل حكمة أو مثل فيقول¹:
- 1- (ولن يهلك أمرؤ عرف قدر نفسه): أي أن المرء محمي ما إن عرف قدر نفسه وابتعد عن سفاسف الأمور يُحترم في الحياة ويخلد بعد الممات.
- 2- ثم يقول: (والعدم عدم العقل لا عدم المال): فالفقر الحقيقي هو افتقار العقل لا فقر المال.
- 3- (ولرجل خير من ألف رجل) هو في هذا المقام يعلي من شأن الرجل العظيم.
- 4- ثم يتبع في إسناد الحكمة لوصاياه حيث يقول: (ومن عتب على الدهر طالت معتبه)، فالذي يعتب على الأيام سيطول به الأمر فالأيام لا حدود لسقطاتها، ولذلك من رضي بقسمته طابت نفسه وهنا عيشه.
- 5- وينتقل إلى مثل جديد وهو قوله: (آفة الرأي الهوى) أي ميل صاحب الرأي إلى الجهة التي تستهويه قبل أن يصدر حكمه فيه، فيكن الحكم بعيدا عن الحق.
- 6- وقوله (والعادة أملك) أي أن العادة محكمة في كل خلاف بين طرفين فإذا رجع المختلفان إلى ما جرى عليه العادة انتهى الخلاف.
- 7- ثم يقول: (الحاجة مع المحبة خير من البغض مع الغنى): إذ المتمتع بحب الناس لو أصابه فقر خير من الذي يبغضه الناس ولو كان موفور الغنى، وينطبق ذلك على نطاق الحماسة، فالقبيلة المتحاب أهلها يسود بين أفرادها التآخي ويفسد الغنى علاقتهم ويجولهم إلى أعداء.
- 8- (الدنيا دول): فلا شيء في الحياة باق على حاله.
- 9- وتبعها قولاً: (ما كان لك أتك على ضعفك، وما كان عليه لم تدفعه بقوتك): أي ما كان لك ستناله رغم ضعفك وما لم يكن مقدور تلك لن تناله.

1- ينظر: هاشم صالح مناع، الشر في العصر الجاهلي، ص. من 128 إلى 130.



10- (الحسد داء ليس له دواء): فالحسد هو تمنى زوال النعمة من عند أخيك وتحولها لك، وهو منهي عنه في كل زمان ومكان، أما الغبطة فهي نقيضة الحسد أي أن يتمنى المرء نعمة رآها على أخيه أن تستمر له.

11- وأما قوله: (والشمامة تعقب) فأرجز بالحذف في هذا المثال إذ إنه أراد أن يقول بحسب الكاتب أن الشمامة تعقب الندامة والحسرة وتوقع بين الناس البغضاء.

12- وفي قوله: (ومن ير يوماً يره) جعل له الباحث عدة احتمالات¹:

أولها: دلالة أن الذي يعيش ليوم جديد يراه حقاً، وبعده من الأيام لا يعلمها شيئاً لأنه لا يدري إما يعيشها أم يكون الأجل اقترب.

ثانيها: أنه من ينظر إلى يومه بابتهاج يراه ذلك اليوم بابتهاج، ومن نظر إليه بتشاؤم كان يومه حزين.

ثالثها: أي أن الماضي والقادم غيب ولك الساعة التي أنت فيها فاستغل يومك لأنك ستسأل عليه.

رابعها: أن من يدرك يوماً يدركه ذلك اليوم.

خامسها: أي الذي يعيش إلى طلوع شمس جديد ويظل على قيد الحياة أي يمتد به الأجل يوماً جديداً يراه الناس، والذي لا يراه الناس فهو اليوم الذي لم تر عيناه شمس يوم جديد ولعله يكون من السابقين إلى رحمة الله.

ثم يواصل الباحث شرح الباقي من الحكم²:

13- ثم يقول: (قبل الرماء تملأ الكنائن) يضرب هذا المثل الذي يقدم على عمل هام كالسفر بلا زاد والمحارب بلا عتاد والطالب بلا اجتهاد، فيقال لكل هؤلاء في هذا المثل أن عليهم الاستعداد للأمر قبل حلوله.

1- ينظر: هاشم صالح مناع، النثر في العصر الجاهلي، ص.ص. 130-131.

2- ينظر: المرجع نفسه، ص.ص. 131-134.



- 14- وقوله: (الندامة مع السفاهة) فالحليم يشكر عاقبة حلمه والسفيه يلقي مغبة سفهه فالسفاهة وقلة الأخلاق تورث الخزي والندامة.
- 15- (دعامة العقل الحلم): فالكاتب يفسر أن سعة الصدر وجمال الصبر من أروع ما اشتهر به العرب.
- 16- (خير الأمور مغبة الصبر): فأحسن ما أنتجه العقل هو الصبر فهو يخلد الحكماء ويعد مفتحا للفرج.
- 17- (بقاء المودة عدل التعاهد): حسن تعهد الآخرين بالعناية والإحسان والوفاء إن التعاهد الخيّر يزرع المحبة.
- 18- ثم ينتقل أكثر إلى القول: (من يزر غبا يزدد حبا): أي من يزور ولا يثقل ولا يجفو بانقطاعه.
- 19- (التغريير مفتاح البؤس): ويعني به الغش إذ هو باب الشفاء.
- 20- (من التواني والعجز تنجب الهلكة): فالعجز ينتج الفشل والنشاط ينتج النجاح والصلاح.
- 21- (عِي الصمت أحسن من عِي المنطق): فما ينتج عن الصمت من أضرار أهون مما ينتج عن اللسان من أخطار.
- 22- (الحزم حفظ ما كُلفَتْ وَتَرَكَ ما كَفَيْتَ): أنجز ما عليك إنجازة تكتمل معيشتك وتسعد أيامك، واصرف النظر لما كفيته لأنه غير مطلوب منك.
- 23- (كثير النصيح يهجم على كثير الظنّة): يرى الكاتب أن أول ما يرد إلى خاطر في هذا المثل أن الناصح الذي ألف دوام النصيحة يتغلب على الشكاكين، فالإنسان إذا استمع إلى النصح مرات قنعت نفسه وآوى إلى رشده.
- 24- (الرفق يُمن والخرقُ شؤم): الرفق لم يكن في شيء إلا زانة، والخرق لم يكن في شيء إلا شانه.



25- (خير السخاء ما وافق الحاجة): العطاء المستحق هو خير أنواع السخاء، أما السخاء في غير محله فهو تبذير ورياء.

26- (خير العفو ما كان بعد القدرة): العفو عند المقدرة هو الصفح الذي يظهر عند الإساءة، وهو العفو والسماح الحقيقي، فإذا دعتك قدرتك على ظلم الناس فتذكر قدرة الله عليك.

بعد تطرق الكاتب للفكرة العامة ومضمون الوصية يتوقف الكاتب ليستخلص أخلاق الإنسان العربي من خلال الوصية، حيث يبين أنها تمثل الإنسان العربي الجاهلي وما يحمله من مكارم الأخلاق، وخص بالذكر منها التواضع والكرم وصلة الرحم، واحترام الحياة الزوجية، والتحلي بالصبر والإيمان بالقدر، واعتماد العقل بدل المال والجاه، والأمر بالحزم والشجاعة والحلم والعناية بالخيال والإبل وبيان مكانتهما، متمسكا في ذلك بتقوى الله والإيمان بقدره¹، وإلى غيرها من الأخلاق التي تعزز بها الأمم وترتكز عليها الشعوب.

ثم يعود الكاتب إلى أسلوب أكثم بن صيفي التميمي، حيث يرى أنه اعتمد في وصتيه على الوضوح والإيجاز وألفاظه عميقة الدلالة كما اعتمد على المعاني القوية والبناء الرصين الذي عكس عقلية بني طيء خاصة والعرب عامة بأسلوب محكم النسيج جزل العبارات. فقصر العبارة وتعدد الموضوعات وبعض الاستطراد مما يألفه العربي في العصر الجاهلي فيدفعه إلى المتابعة، ولطالما كان التنوع وتعدد الموضوعات متلائما مع حياة العربي من تجوال وعدم الاستقرار².

والنص حسب الكاتب كان مليئا بالتشبيهات والاستعارات والزخارف من طباق وسجع وحسن التقصي والإزدواج والحذف والتنويع في الأساليب، ذلك كله يهدف إلى النصح والإرشاد والعظة وقول الحكمة، ففي التشبيه البليغ أخذ الكاتب مثالا عن الخيال (إنها حصون العرب)، و(الحسد داء ليس له دواء)، أما الاستعارة فتلاحظ في قوله عن

1- ينظر: هاشم صالح مناع، النثر في العصر الجاهلي، ص. 134.

2- ينظر: المرجع نفسه، ص. 135.



الإبل: (لو كلفت الطحن لطحنته)، مروراً إلى الطباق، فقد أخذ مثالا (عبي الصمت أحسن من عبي المنطق)، (داء ودواء)، والجناس في قوله: (غبا وحبأ)، والحذف في قوله: (إياكم ونكاح الحمقاء) أي واتركوا نكاح الحمقاء، والسجع في عبارته: (معتبته ومعيشته)، و(داء ودواء)... يستخلص الكاتب في الأخير كيف أن أكثر يفرّ من الصنعة البلاغية خاصة من السجع والرتابة الموسيقية لكنها تتبعه وتلحق به ذلك أنه يرس حكمه من خلال وصية لقومه، وعُجنت محبة وصدقا كل واحدة منها تصلح عنوان لكتاب أو موضوعا لبحث¹.

أما بخصوص العاطفة والخيال: يرى الكاتب أن العاطفة صادقة وعاطفة صدق وحكمة، كان الرجل بها شديد التأثر يقول لأنه يقدم خلاصة تجربته في الحياة، وكانت عاطفته بعيدة عن الخيال، أما الأساليب البلاغية والمحسنات البديعية التي من عادتها أن تلعب دورا بارزا في الخيال فقد وردت في هذا النص صادرة عن عفويته وطبع دون تكلف لذلك لا يوجد الخيال في الوصية وبقي محصورا في حدود الواقع².

3/ وصية أمامة بنت الحارث إلى ابنتها أم ياس:

الوصية التي مطلعها: «أي بنية إن الوصية لو تركت لفضل أدب تركت لذلك منك...»³، تم توجّه الكاتب إلى استخلاص مضمون الوصي حين فصل كل نقطة عن الأخرى⁴:

- (الصحبة له بالقناعة والمعاراة له بحسن السمع والطاعة): أي أن تقتنع به نصيبا وقدرا وتعاشره بحسن السمع والطاعة.

- (التعهد لوقع عينيه): فلا يرى منها إلا كل جميل في المظهر والثياب والبيت.

1- ينظر: هاشم صالح مناع، النثر في العصر الجاهلي، ص.ص. 136-137.

2- ينظر: المرجع نفسه، ص.ص. 137-138.

3- ينظر: المرجع نفسه، ص. 140.

4- ينظر: المرجع نفسه، ص.ص. 142-144.



- (التفقد لموضع أنفه): فلا يجد فيها إلا أطيب ريح وبيتها فهو يرى منها كما أوصتنا بالكحل فهو حسن والماء فهو طيب.
- (التعهد لوقت طعامه): فالرجل يهوى أن يعود لبيه ليجد طعامه على الطريقة التي تستهويه.
- (الهدوء عند منامه): فالبيت للرجل سكن وراحة يجد فيه طمأنينته والنوم راحة إن لم يجدها الرجل اضطرب مزاجه، فغنى زوجها غناها، وفقره فقرها، وهو مستقبل أولادها.
- (الاحتفاظ ببيته وماله): فهو أمانة يستشهد الكاتب بقول الله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾¹، فالمرأة وجب عليها أن لا تتصرف بمال زوجها دون علمه وأن تقدره وتوفر عقلها
- (الإرعاء على نفسه وحشمه وعياله): فالعناية به وبأولاده وكل ما له علاقة به غاية العقل ومنتهى المحبة.
- (لا تفشي له سرا): فأسرار الزوجين وجب حفظها لا يدري بها إلا خالقها فإن كشفت لا تلم إلا نفسها.
- (لا تعصي له أمرا): فالرجال قوامون على النساء والرجل يستشعر رجولته إن كان أمره مطاع وعصيانه يولد غضبه.
- (اتقي ذلك الفرح إن كان قرحا): فالحياة الزوجية هي أن تفرحي لفرحه وتتألمي لألمه ولا يوجد قبح من أن تكنئي إذا فرح، وتفرحي أمامه وهو تعيس كأن متشمتة لما أصابه. وتنتهي وصايا أمامة بملحقات ثلاث:
- أ- (كوني أشد ما تكونين له إعظاما، يكن أشد ما يكون لك إكراما): فإن عظمته يكرمك، والثقة أيضا هي أساس الحياة الزوجية والمحبة المتبادلة مظهرها.

1- سورة الأحزاب، الآية 72.



ب- (وأشد ما تكونين له موافقة، يكن ما تكون له مرافقة): فدوام المرافقة له من حسن المعاملة وطيب الاستجابة.

ت- (واعلمي أنك لا تصلين إلى ما تحبين حتى تأثري رضاه من رضاك): ختمت أمانة وصيتها بهذا القول وأخبرت ابنتها أنها لن تعيش سعيدة حتى تفضل رضاه على رضاك، وهواه على هواك، فالزوج سريع للغضب سريع التأثر، وفي الوقت نفسه سريع الرضى والمغفرة وهذه الوصايا ترشدك نحو الطريق الصحيح والمنهج القديم.

ينصرف الكاتب إلى أسلوب أمانة في وصيتها: فيرى أنه من الأسلوب السهل الممتنع المركز المصقول تكاد تختفي فيه الصنعة البلاغية، تركز عباراته على الأسلوب الإنشائي، فقد استعملت النداء في (أي بنية ويا بنية) وأسلوب الأمر في قولها: (احملي عني، كوني أشد ما تكونين)، وأسلوب النهي في قولها: (لا تعصي له أمرا)، غايتها النصح والإرشاد، أما الأساليب البلاغية فقد كانت زينة النص، جاءت عفوية لا تكلف فيها، وفي المقابلة تقول: «كوني له أمة يكن لك عبدا»، وفي السجع الذي هو سر لجمال الأسلوب وعفويته (وقت طعامه وعند منامه، ملهبة ومغضبة)، والجناس في قولها: (مرافقة وموافقة)، (ذخرا وذكرا)، وفي الكناية تقول: (التعهد لموقع عينيه) كناية عن كل ما يراه، والماء أطيب الطيب كناية عن الطهارة والنظافة والاعتسال¹.

أما عن العاطفة والخيال: فالعاطفة في هذه الوصية هي عاطفة إشفاق وحنان وهي عاطفة صادقة مؤثرة واقعية لا مجال للخيال فيها استطاعت أمانة من خلالها أن تنقل إلينا صدق عاطفتها وحرارة صدقها، كما تندرج هذه الوصية على ظل فتاة مقبلة على الزواج، ويختتم الكاتب بأن ما حَلَّدَ هذه الوصية أنها من أم حكيمة لأعز ما تملك، لذا كان وقعها مؤثرا فما خرج من القلب يقع في القلب².

1- ينظر: هاشم صالح مناع، النثر في العصر الجاهلي، ص. 145-147.

2- ينظر: المرجع نفسه، ص. 147.



ومن أشهر الوصايا الجاهلية وصية أمامة بنت الحارث لابنتها ليلة زفافها، وتكشف هذه الوصية على أن الجاهليين كانوا يعنون بتنميق أسلوبهم في الوصايا حتى يكون له وقع جميل ويكون هذا عاملا مساعدا على الإصغاء إلى الوصية ثم التأثر بها، ونرى الوصية هنا تلتزم السجع، وتعنى بالازدواج كما في قولها: "إلى رجل لم تعرفه، وقرين لم تألفه"، ومن أمثلة الجناس: خرجت ودرست في قولها: "بيتك الذي منه خرجت وعشك الذي فيه درجت"، ويبدو الطباق والمقابلة في قولها: "وإياك والفرح بين يديه إذا كان مهتما أو الكآبة لديه إن كان فرحا"¹.

وتكشف الوصية عن عقلية ناضجة متفتحة وأمامة هنا خبيرة بنفسيات الرجال، وهي أيضا ذات نظرة شاملة تستطيع أن تحيط بالجوانب المتعددة، وقد عرفت ذلك من معاشرتها لزوجها، ومن ملاحظتها لمن حولها، وتكشف الوصية أيضا عن بعض الأخلاق السائدة في ذلك المجتمع وتعطينا صورة عن احترام المرأة للرجل وطاعة المرأة لزوجها، ووفاء الزوج لزوجته ما أطاعته ورعت ما يجب عليها رعايته فهي تقول "كوني له أمة يكن لك عبدا"، وهنا طاعة الزوجة وتقدير الزوج، وإذا ألقينا نظرة على هذه الوصية وجدناها تنم عن سليقة لغوية سليمة، فهي تبدأ الوصية بقولها: "أي بنية" لتجذبها وتشعرها بأنها صغيرة ليس لديها خبرة أمها، وليس هناك أحرص من الأم على مصلحة ابنتها، ثم قولها: "كوني له أمة" يوحي بالخضوع التام والطاعة المطلقة وليس هذا بدون مقابل، فسيكون الزوج لها عبدا، وتحرص الأم على التكرار لتأكيد المعنى وتثبيتته في نفس ابنتها، ومن ذلك قولها: "رجل لم تعرفه وقرين لم تألفه"، وقد أسلفنا أنها تعنى بوضوح النغم الموسيقي وهذا يزيد الأسلوب جمالا في الأذن ويجعله أشد تأثيرا في النفس².

و«الوصية المذكورة دستور المرأة العاقلة التي تحرص على سعادة عشها وبيتها، وقد صدرت من أم مجربة محنكة حلبت الدهر أشطره، وحرصت كل الحرص على أن تحقق

1- أحمد أمين مصطفى، أدب الوصايا في العصر العباسي إلى نهاية القرن الرابع، مكتبة الأنجلومصرية، مصر، 1990م، ص.11.

2- المرجع نفسه، ص.ص.11-12.



السعادة والرفاه لابنتها، وتبين لها ما يجب عليها نحو زوجها لتدوم السعادة الزوجية وتحقق السكينة والطمأنينة»¹.

إن ما ورد من نصائح وإرشادات نابغة من القلب يعتبر دستوراً صالحاً لكل فتاة مقبلة على الزواج فأمامة حدثت ابنتها حسب تجربتها، فنصائحها كانت واقعية وأسلوبها بسيط لا تكلف فيه، وقد جاءت الوصية مسجوعة إذ هو الطابع الذي كان يسود ذلك العصر، والوصية قلائد من الذهب جاءت عفوية الخاطر دون تكلف أو صناعة، كما زخرت الوصية بالتشبيهات والاستعارات مما أكسب النص روعة وجمالاً، كما عمدت أمامة إلى التنوع في الأسلوب والخطاب، فمرة نجد النداء في قولها: (أي بنية) يتبعه الخبر المؤكد في قولها: (إنك فارقت بيتك الذي منه خرجت)، وأحياناً تجد الأمر في قولها: (فكوني له أمة يكن لك عبداً)، (واحفظي له خصالاً عشرةا يكن لك ذخراً)، كما نجد الخبر يتبعه النهي المؤكد نحو قولها: (فلا تفشي له سرا ولا تعصي له أمراً)، كما نجد أسلوب الشرط في قولها: (فإنك إن أفشيت سره لم تأمني غدره)، ويظهر أسلوب التحذير في قولها: (ثم إياك والفرح بين يديه إذا كان مهتماً، والاكتئاب إن كان فرحاً)، وهذا التنوع في الأسلوب والخطابة له أثر في التشويق واستثارة العواطف، وحبذا لو حفظت فتياتنا هذه الوصية وطبقنها في بيوتهن دون حساسية، إذا لرأينا السعد يرفرف على بيوتهن، فهو نص حكيم من أم أفنتها تجارب السنين أرادت أن تضمن لابنتها الهناء في بيتها الجديد، فتوضح لها الحياة التي لم تألفها من قبل، ثم تنتقل إلى سرد ما يتوجب على المرأة نحو زوجها فتوصيها بعشر خصال جامعة خلاصتها: القناعة والإعتناء بالمظهر إعتناء لا يخرج عن الحد المطلوب المعتدل والنظافة وحسن التدبير، والمحافظة على السر ومراعاة حالة الزوج النفسية توفيراً لكرامتها واجتناباً لهناءتها².

1- مُجَدِّ بدر معبدي، أدب النساء في الجاهلية والإسلام، مكتبة الآداب، مصر، د.ت، ص.19.

2- ينظر: مُجَدِّ بدر معبدي، أدب النساء في الجاهلية والإسلام، ص.19-20.



بما أن وصية أمانة لابنتها تندرج ضمن أدب النساء فارتأينا أن نتطرق لأسلوب هذا الأدب في العصر الجاهلي:

أسلوب الوصية في العصر الجاهلي (وصايا النساء: أدب النساء في الجاهلية):

أسلوب الوصية في هذه الحقبة كان ينجح إلى السجع تارة وإلى الازدواج تارة أخرى، وكان السجع محبباً إليهن، وذلك للاستعانة به على التأثير في الوصية، ولما يقتضيه المقام من التأنق في القول، ربما كان شيوع السجع راجعاً إلى ما فيه من نغم متعادل، ورنه موسيقية، فهو أعمق أثراً في النفس، وأحلى إيقاعاً في الأذن، والأذن أحد طريقتين تنفذ فيها الموصية إلى نفوس سامعيها، وربما لأن السجع أشد مقاومة لعوامل الضياع من غيره لقربه من الشعر: فهو أسهل حفظاً، وأكثر بالذهن لصوقاً، ومع السجع نرى تقصير الجمل والفصل بينها، حتى تبدو كأنها فقرات أو جمل منفصلة، وربما كان للارتجال أثره في هذا، على أن تقصير الجمل في المواعظ والوصية شيء تستدعيه طبيعة الموضوع حتى يتاح للموصى أن يتنفس وأن يستريح وأن يتدبر ما يقول، وحتى يتييسر للسامع أن يتابعه ويفهم عنه، إذ لو جاءت الجمل مفرطة الطول لضاق بها السامع وتخلف عنها وجهه في تتبعها، ولو جاءت بالغة القصر لوقفت به فجأة دون ما يتوقع كأنما تعثر فكره وزل¹، فالوصايا في العصر الجاهلي اعتمدت على السجع الذي كان له وقع شديد في النفوس، كما أنه سهل الحفظ حلو الإيقاع، هذا ما يسر وصول وصايا ألقيت آنذاك تخص نساء العصر الجاهلي إلينا.

كما نلاحظ «الترادف أحياناً والتنوع في عبارات المعنى الواحد في الترادف والتنوع وتغيير يبعث على نشاط السامع ولذته ونلاحظ قلة تعمقهن في استخراج المعاني البعيدة، وفي استقصاء الأفكار العويصة التي تحتاج كد خاطر ودرس علم وأنهن كثيراً ما يستخدمن الكنايات القريبة المنال وميلهن في الوصايا إلى سوق الحكم والأمثلة الحكيمة ليكون ذلك أدعى إلى قبول الوصية والإسراع إلى تطبيقها»².

1- ينظر: المرجع نفسه، ص.ص. 17-18.

2- محمد بدر معبدي، أدب النساء في الجاهلية والإسلام، ص.ص. 17-18.



التعليق على الوصايا:

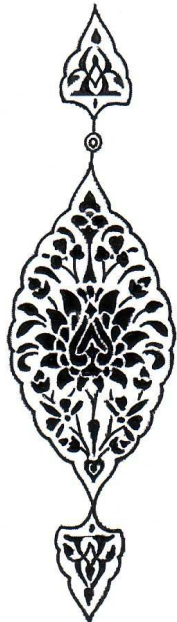
في نهاية هذا الفصل علق الكاتب على الوصايا النابعة من العصر الجاهلي، إذ يرى أنها تمثل الإنسان البدوي والعصر الجاهلي وأصالته العربية التي تقوم على مكارم الأخلاق من عفة وكرم وتواضع وصبر وصلة رحم واحترام... تمثل الوصايا الجانب الإيجابي عند الأمم ولم تبغ عند الإنسان العربي كالذي بلغته في الجاهلية، تلك الوصايا التي حرصت أشد الحرص على توريث الأخلاق السامية والمبادئ النبيلة، لذلك اتجه أبنائهم وسلوكوا طريقهم وأخذوا عنهم. وما لاحظته الكاتب من خلال دراسته للوصايا أنها اعتمدت أسلوبا موجزا مركزا لا إطناب فيه، كما اعتمدت على الحكمة وضرب المثل لذلك جاءت قوية المعنى متينة المبنى غير متكلفة عكست عقلية العربية آنذاك وظفت في الوصايا الحكمة والمثل وسردت فيها حقائق من خلال التجارب التي مر بها الموصي ذلك لتحقيق تأثير الوصية على الموصى إليه، إن الوصايا أقل شيوعا من الحكمة والخطابة أعم من الوصايا من حيث الجمهور، وتكاد تتساوى مع قول الكهان من حيث صدورها واختصاصها بلغتهن¹. فبالرغم من أن الوصايا الجاهلية تفصلنا بينها وبينها مئات السنين إلا أنها صالحة لزماننا هذا ويمكننا العمل بها والسير وفقها لأنها وصايا نابعة من حكمة صاحبها وخبراته وتجاربه التي اكتسبها مع توالي السنين.

1- ينظر: هاشم صالح مناع، النثر في العصر الجاهلي، ص.ص. 148-149.

عَرَضٌ وَتَقْدِيمٌ

الفصل الرابع:

الرسائل





الفصل الرابع

الرسائل

لقد تقاسم النثر في العصور القديمة أجناس أدبية هي: (الوصايا، الخطب الرسائل...)، تبوأن منزلة رفيعة في الأدب العربي، وفي هذا الفصل الذي يخص أدب الرسائل سنتطرق إلى دراسته منطلقين من ما أتى به الكاتب من نماذج.

بداية «تعتبر الرسائل ضربا من ضروب النثر عمادها القلم، وبما أن العرب الجاهليين لم يكونوا من أرباب الكتابة ولا من مستخدميها فلا توجد رسالة واحدة نظمنا على صحتها»¹، لقد أعرب الكاتب عن شكّه حيال قضية الرسائل لكنه درس في هذا الفصل ما نسب إلى العصر الجاهلي من رسائل، وللولوج إلى الموضوع يجدر بنا أن نحرر معنى الرسالة لغة واصطلاحا، فالرسالة في لسان العرب من الرسل: القَطِيعُ من كُلِّ شَيْءٍ، أو القطيع بعد القطيع من الإبل والغنم، وجاء الناس رسالة أي جماعة، والرّسل والرّسلة: الرفق والتؤدة، والترسل كالرسل: والترسل في القراءة والترسيل واحد، وهو التحقيق بلا عجلة، وترسّل في قراءته أناد فيها وفي الحديث: كان في كلامه ترسيل أي تراسيل والترسل في الكلام التوقر والتفهم والترفق من غير أن يرفع صوته شديدا، والإرسال: التوجيه، وقد أرسل إليه والاسم الرسالة والرسالة والرسول والرسل، والمراسيل من النوق مرسال وهي سريعة السير، وتراسل القوم: أرسل بعضهم إلى بعض².

فالظاهر من المعنى اللغوي للرسالة أنها تعني طريقة التواصل والاتصال بقصد واضح وهيئة مخصوصة بدأت بالحيوان في الطبيعة، وانتهت بالإنسان في الثقافة التي اعتمدها في الرفق والتؤدة والتحقق وعدم التسرع في القراءة وأسلوب الكلام، ولم نلاحظ في هذه المعاني جميعها أي إشارة إلى الكتابة وأنماطها بأي شكل من الأشكال.

1- ينظر: هاشم صالح مناع، النثر في العصر الجاهلي، ص.153.

2- الشريف الجرجاني، التعريفات، تح. نصر الدين تونسي، شركة التصدير، القاهرة، مصر، ط.1، 2007م، ص.184.



ويعرف ابن منظور الرسالة لغة: «والإِرْسَال: التَّوَجِيهُ، وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ، وَالِإِسْمُ الرِّسَالَةُ وَالرِّسَالَةُ وَالرَّسُولُ وَالرَّسِيلُ»¹.

لكن المعنى الاصطلاحي الذي تلا ذلك ربط الرسالة بالكتابة ربطا وثيقا، فقد أورد الشريف الجرجاني في التعريفات: «الرسالة: هي المجلة المشتملة على قليل من المسائل التي تكون من نوع واحد، والمجلة، هي الصحيفة يكون فيها الحكم»²، فكأن الجرجاني هنا حدد الرسالة بنوع واحد منها اختص بالرسائل الفلسفية والكتابات المتأخرة في الموضوعات الفكرية أو الكلامية الفقهية، أما المعنى الاصطلاحي الأوسع في مجال الرسالة الأدبية فهو: «ما يكتبه امرؤ إلى آخر معبرا فيه عن شؤون خاصة أو عامة، وتكون الرسالة بهذا المعنى موجزة لا تتعدى سطورا محدودة، وينطلق فيها الكاتب عادة على سجية بلا تصنع أو تأنق وقد يتوخى حينها البلاغة والغوص على المعاني الدقيقة فيرتفع بها إلى مستوى أدبي رفيع [أو] هي كلام مكتوب يبعث به إنسان إلى آخر في غرض أغلب ما يكون في محض شخصي إلا أن الرسائل الأدبية لم تنحصر يوما في حيز هذا المفهوم الضيق»³.

إن النقاش الدائر حول الرسائل الجاهلية يعبر عنه من خلال مسألة الفنون النثرية الجاهلية بعامة، فالدارسون ينقسمون حول تلك الفنون إلى فريقين أولهما: ينكر وجود نثر في جاهلي، فيما أن القوم كانوا أميين فأجدر بهم أن لا يعرفوا النثر الفنية البتة ويقوم على رأس هؤلاء "طه حسين" الذي يقول: «والواقع أننا لا نستطيع بحال من الأحوال -مهما نحصر على أن نكون من أنصار العصر الجاهلي وعشاقه- أن نطمئن إلى أن هذا العصر كان له نثر فني»⁴، ويشايعه في ذلك "السيد مرسيه"، ويقف على النقيض من ذلك "زكي مبارك" الذي يمثل الفريق الآخر، حيث يؤكد وجود النثر الفني بأرقى صورته في العصر الجاهلي قائلا: «وخلاصة ما أراه أنه كان للعرب قبل الإسلام نثر فني يتناسب مع صفاء

1- ابن منظور جمال الدين، لسان العرب، دار صادر - بيروت، الطبعة: الثالثة - 1414 هـ، ج. 11، ص. 283.

2- الشريف الجرجاني، التعريفات، ص. 184.

3- جبور عبد النور، المعجم الأدبي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط. 2، 1984م، ص. 122.

4- طه حسين، من حديث الشعر والنثر، مؤسسة هنداوي، مصر، ط. 1، 1936م، ص. 24-25.



أذهانهم وسلامة طباعهم، ولكنه ضاع لأسباب أهمها شيوع الأمية وقلة التدوين، وبعد ذلك النثر عن الحياة الجديدة التي جاء بها الإسلام ودونها القرآن»¹.

أما ناصر الدين الأسد فقد أكد كثرة الرسائل الجاهلية في تتبعه موضوعات الكتابة وأدواتها في العصر الجاهلي فيقول: «ومن يقرأ أخبار الجاهلية في كتب الأدب أو كتب التاريخ يعجب لكثرة رسائلهم آن ذاك ويكاد يلمس أن كتابة الرسائل في الجاهلية أمر مألوف ميسور شائع في شتى الشؤون»²، ويلحظ أنه يذكر نماذج من الرسائل دون أن يعنى بمدى فنيته، فهو معني في المقام الأول بإثبات وجود الكتابة في حياة الجاهلية.

إذا عرف العرب في جاهليتهم الكتابة والتدوين، وكانت لديهم رسائل لكنها ليست فنية بحسب "ناصر الدين الأسد"، وإلى مثل هذا ذهب شوقي ضيف حين قال: «ليس بين أيدينا وثائق جاهلية صحيحة تدل على أن الجاهلين عرفوا الرسائل الأدبية وتداولوها، وليس معنى ذلك أنهم لم يعرفوا الكتابة؛ فقد عرفوها، غير أن صعوبة وسائلها جعلتهم لا يستخدمونها في الأغراض الأدبية الشعرية والنثرية، ومن ثم استخدموها فقط في الأغراض السياسية والتجارية»³، وبمضي شوقي ضيف مؤكدا ذلك ولافتا النظر إلى وجود فنون نثرية أخرى فيقول: «وإذا كنا نفتقد الأدلة المادية على وجود رسائل أدبية في العصر الجاهلي فمن المحقق أنه وجدت عندهم ألوان مختلفة من القصص والأمثال والخطابة وسجع الكهان»⁴.

إن "أحمد زكي صفوت" حين جمع رسائل العرب في الجاهلية لم يعثر إلا على اثني عشرة رسالة منها أربع شعرية وقد قال "صفوت" في تقديمه لها: «إن جمهرة العرب في ذلك العصر كانت مبتدئة، فلم تكن الكتابة فيهم فاشية، ولذا كانوا يعتمدون في مراسلتهم على المشافهة، فيبعثون برسالاتهم شفوية مع أمناء ينتخبونهم لإبلاغها، وكانوا يحتفظون بآثارهم

1- زكي مبارك، النثر الفني في القرن الرابع الهجري، ص.38.

2- ناصر أسد، مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية، دار المعارف، ط.5، دبت، ص.71.

3- شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي -العصر الجاهلي-، ص.398.

4- المصدر نفسه، ص.399.



الأدبية فيستظهرونها في الصور و يتناقلونها على الألسن، ولم يزاووا من العلوم والفنون ما يقضي عليهم أن يدونوه ويقيدوه في سجل يدرأ عنهم عادية الضياع والإمحاء، أما أهل الحضارة منهم فقد ألموا بالحضارة بعض الإمام وكانوا يمارسون الكتابة ويتبادلون الرسائل المكتوبة ولكنهم لتقادم العهد لم يؤثر عنهم إلا رسائل قلائل معدودة»¹.

ذكرنا سابقا أن الكاتب "هاشم مناع" شكك في قضية أدب الرسائل لعدم وجود الدليل الذي يثبت صحتها: «وقضية الرسائل قضية لا يمكن قبولها على علاقتها لمجرد ورود بعضها عن المصادر التي تهتم بتوثيقها ولا يمكن رفضها رفضا قاطعا لعدم وجود الدليل المادي، ولذلك كله فإني لا أطمئن لصحة مثل هذا الفن الأدبي المتطور»²، لقد دون الكاتب رسالتين نسبتا إلى العصر الجاهلي لم يقم بتحليلهما لأن الأمر لا يختلف عن ما ورد في باب الوصايا (وصية أكتم بن صيفي التميمي إلى طيء)، الرسالتين هما: كتاب عمرو بن هند إلى عامله بالبحرين، وكتاب النعمان بن المنذر إلى كسرى.

1- كتابة عمرو بن هند إلى عامله بالبحرين:

«باسمك اللهم من عمرو بن هند إلى المكعبر. أما بعد، فإذا أتاك كتابي هذا مع المتلمس فاقطع يديه ورجليه وادفنه حيا»³.

وقد ورد في كتاب "ثمار القلوب" للثعالبي شرح لهذه الرسالة، وذكر لقصتها، إذ يقول:

«تضرب مثلا لمن يحمل كتابا فيه حتفه وكان طرفه بن العبد وخاله جرير بن عبد المسيح المعروف بالمتلمس ينادمان عمرو بن هند الملك فبلغه أنهما هجواه فكتب لهما إلى عامله بالبحرين كتابين أوهمهما أنه أمر لهما فيهما بجوائز وقد كان أمره بقتلهما فخرجا حتى إذا كانا بالنجف إذا هما بشيخ في الطريق يحدث ويأكل من خبز في يده ويتناول القمل من ثيابه فيقصعه فقال له المتلمس ما رأيت كاليوم شيئا أحقق فقال له الشيخ وما

1- أحمد زكي صفوت، جمهرة رسائل العرب في العصور العربية الزاهرة، المكتبة العلمية، ط.1، د.ت، ص.30.

2- هاشم صالح مناع، النثر في العصر الجاهلي، ص.153.

3- ينظر: المرجع نفسه، ص.155.



رَأَيْتُ مِنْ حَمْقَى أَخْرَجَ خَبِيثًا وَأَدْخَلَ طَيِّبًا وَأَقْتَلَ عَدُوًّا وَأَحْمَقَ مِنِّي وَاللَّهِ مِنْ يَحْتَمِلُ حَتْفَهُ بِيَدِهِ فَاسْتَرَابَ الْمُتَمَلِّسُ بِقَوْلِهِ وَطَلَعَ عَلَيْهِ غُلَامٌ مِنْ أَهْلِ الْحَيْرَةِ فَقَالَ لَهُ أَتَقْرَأُ يَا غُلَامُ قَالَ نَعَمْ فَفَكَ صَحِيفَتَهُ وَدَفَعَهَا»¹.

فعندما قرأها الغلام وجد مكتوبا فيها: «أما بعد فإذا أتاك المتلمس بكتابنا هذا فاقطع يديه ورجليه وادفنه حيا فأخذها المتلمس وقذفها في نهر الحيرة ثم قال لطفه إن في صحيفتك والله ما في صحيفتي فقال طرفة كلا لم يكن ليجتري على ثم أخذ المتلمس نحو الشام فنجا برأسه وتوجه طرفة نحو البحرين وأوصل الكتاب إلى عاملها فلما قرأه قال له إن الملك قد أمرني بقتلك فاختر أي قتلة تريدها فسقط في يده وقال أن كان لا بُد من القتل فقطع الأكحل فأمر به ففصد من الأكحل ولم تشد يده حتى نزل دمه فمات»²، فقد كان هذان الشاعران يجملان موتهما بأيدهما وسائران نحوه من دون أن يعرفا أنه ذلك، إذ أن عمرو بن هند حاول خداعهما بأنهما يجملان أمر بإعطائهما جوائز، فجرير عندما قرأ له الغلام الصحيفة هرب ونجا بنفسه، أما طرفة بن العبد فأكمل ذلك وذهب إلى الهلاك بيديه.

2- كتاب النعمان بن المنذر إلى كسرى:

ورد في هذه الرسالة: «أما بعد، فإن الملك ألقى إليّ من أمر العرب ما قد علم، وأجبتة بما قد فهم بما أحببت أن يكون منه على علم، ولا يتلجلج في نفسه أن أمة من الأمم التي احتجزت دونه بمملكته، وحمتم ما يليها بفضل قوتها، تبلغها في شيء من الأمور التي يتعزز بها ذو والحزم والقوة والتدبير والمكيدة. وقد أوفدت أيها الملك رهطا من العرب؛ لهم فضل في أحسابهم وأنسابهم وعقولهم وآدابهم؛ فليسمع الملك، وليغمض عن

1- أبو منصور الثعالبي، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، دار المعارف - القاهرة، د.ط، د.ت، ص.215.

2- ينظر: المرجع نفسه، ص. 216.



جفاء إن ظهر من منطقتهم، وليكرمني بإكرامهم وتعجيل سراحهم، وقد نسبتهم في أسفل كتابي هذا إلى عشائرتهم»¹.

والباحث شرح في الهامش هذا الرسالة من خلال ما جاء في كتاب "العقد الفريد" لصاحبه: ابن عبد ربه، فقد قدم النعمان بن المنذر على كسرى وعنده وفود الروم والهند والصين، فذكروا من ملوكهم وبلادهم. فافتخر النعمان بالعرب وفضلهم على جميع الأمم، فأخذ ملك كسرى يقلل من شأن العرب فرد عليه النعمان مفندا قوله، وعندما عاد النعمان إلى الحيزة وفي نفسه ما فيها مما سمعه من ملك كسرى فاتصل ببعض خطباء العرب وفرسانها وأرسلهم إلى كسرى لينطق كل رجل منهم بما حرضه، وأرسل النعمان مع الرهط كتابا إلى كسرى ليخبره لما أرسل وليكرم رجاله ويرسلهم بإطلاق سراحهم².

هذا أبرز ما ورد في فصل الرسائل وهذه أبرز الرسائل التي عرض لها في هذا الباب من الفنون الثرية.

1- هاشم صالح مناع، النثر في العصر الجاهلي، ص.157.

2- ينظر المرجع نفسه، ص.157.

عَرَضٌ وَتَطْفِئِيمٌ

الفصل الخامس:

الحكم والأمثال





الفصل الخامس

الحكم والأمثال

جاء عنوان الفصل الخامس من كتاب "النثر في العصر الجاهلي" كآلاتي: "الحكم والأمثال".

1- الحكم:

لقد بدأ باحثنا بالحكم، فيقول عنها: إن الحكمة هي معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم، ويقال لمن يحسن دقائق الصناعات ويتقنها "حكيمًا"، أي عالم، وقد ورد في الحديث النبوي الشريف: "وإن من الشعر حكما"، ويروي "الحكمة" أي كلاما نافعا يمنع من الجهل والسفه¹.

والحكمة أيضا حسب ما أورده الباحث عن السيوطي في "المزهر"، و "ابن منظور" في "لسان العرب" إذ يقول: «والحكمة: قول بليغ موجز يحاول سن خليقة يتبعها الناس فيما يرضونه من خصال وسلوك، أو ما ينكرونه من أفعال وعادات تصاغ في بيت شعري أو مثل أو عبارة أنيقة موجزة غزيرة المعنى، ذات دلالات بعيدة، تؤدي ما يؤديه المثل، إلا أنها لم تشع في الجمهور، ولم تجر إلا بين الخواص، وليس بينها وبين المثل إلا الشيع وحده»²، وحسب هذا القول فإن الحكمة هي عبارة عن بيت شعري أو مثل ذات دلالات بعيدة المدى، يكون فيها خصال وسلوكات يتبعها الناس، أو أفعال وعادات يجب أن يتعدوا عنها، والحكمة مثلها مثل المثل في الشيع.

إن الحكمة في تعريفها اللغوي تنطلق إلى عدّة معان أشهرها ثلاث³:

1- هاشم صالح مناع، النثر في العصر الجاهلي، ص.161.

2- ينظر: المرجع نفسه، ص.161.

3- ينظر: عبد المجيد قطامس، الأمثال العربية دراسة تاريخية تحليلية، ط.1، دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر، دمشق، سوريا،

1408هـ-1988م، ص.16-17.



1- العلم: إذ يقول العرب: حكم فلان حكما وحكمه إذا صار حكيما، أي عالم وصاحب حكمة، وعلى هذا المعنى جاء قول النابغة الذبياني يخاطب النعمان:

وَاحْكُمْ حُكْمَ فَتَاةِ الْحَيِّ إِذَا نَظَرْتَ إِلَى الْحَمَامِ سِرَاعٌ وَزَادِ الثَّمَدِ

أي كن حكيما كهذه الفتاة، وأصب كما أصابت، حيث نظرت إلى الحمام فأحصته ولم تخطئ عدده.

2- الإتيان: إذ يقولون: أحكم فلان عمله إحكاما، إذا أتقنه فهو محكم، ويصاغ من المادة بهذا المعنى صيغة أخرى هي قولهم: حكيم، فاعيل بمعنى مفعول، وعليها جاء قول الأعشى يصف القصيدة:

وَعَرَبِيَّةٌ تَأْتِي الْمُلُوكَ حَكِيمَةً قَدْ قُلْتُهَا لِيُقَالَ مَنْ ذَا قَالَهَا

3/ المنبع: فيقال: حكمت السفينة، وحكمته أي منعته وأخذت على يديه، ومن هذا المعنى قيل للحاكم: حاكم، لأنه يمنع الظالم من الظلم وعليه جاء قول جرير:

أَبْنِي حَنِيفَةً أَحْكِمُوا سُفْهَاءَكُمْ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَنْ أَغْضَبَا

أما الحكمة في الإصلاح الأدبي فإن العلماء قالوا في تعريفها وتحديد ماهيتها أقوالا شتى، تختلف ألفاظها، ولكن مدلولاتها تقترب بعضها من بعض اقترابا شديدا، ويرجع هذا الاختلاف فيها أرى إلى ورود الكلمة في اللغة لعدة معان، ونستطيع نحن أن نقول بعد إطلاعنا على كثير من آراء العلماء في تعريف الحكمة أن المراد بها تلك العبارة التجريدية التي تصب المعنى الصحيح، وتعبر عن تجربة من تجارب الحياة، أو خبرة من خبراتها ويكون هدفها عادة الموعدة والنصيحة¹.

إن الحكمة تصدر عن عقل واع وتجربة عميقة وخبرة طويلة بشكل أدبي فني عميق فهي مزيج بين العقل والشعور ولديها قوة في المعنى وذات أسلوب فريد، ومن أهدافها أنها توجه النفس الإنسانية إلى الكمال من خلال التجربة والخبرة التي مر بها صاحب الحكمة

1- ينظر: عبد المجيد قطامس، الأمثال العربية دراسة تاريخية تحليلية، ص. 17.



ومن شروطها: يجب أن يسلم بها الجميع لأن هدفها هو المنفعة والنهي عن الجهل أو الوقوع في الخطأ¹.

يعرف الكاتب "علي بن محمد بن حبيبي الماوردي" فيقول: إن الحكمة هي التعبير عن خبرات الحياة أو بعضها على الأقل مباشرة في صيغة تجريدية، فالحكماء أضفوا على المثل معنى مجرد واستعملوا كلمات عامة، كما أن بعض الشعراء حولوا النثر إلى نظم ذو إيقاع وقافية، فعرفوا بأنهم شعراء الأمثال والحكم، كزهير وصلاح عبد القدوس، وأبي العتاهية والمتنبي وغيرهم².

فالحكمة هي أكثر الأنواع الأدبية إستيعاباً للفنية الجمالية لأنها تمزج بين العقل والشعور، وبين الذات والموضوع، فهي موضوعية على أساس الأفكار التي تطرحها، فهي تنطلق من الواقع المحسوس، أما ذاتية لأنها تجسد تلك الأفكار على شكل صور ملونة بألوان الخيال والتصور وخاصة الأشعار منها، وليس لها غرض بعينه، إنما تتناول كل غرض أو مضمون، فهي صالحة في كل زمان ومكان، فهي عكس المثل لا تلقى في حادث أو مناسبة ما، بل تصدر عن تجربة وخبرة وليس لها قصة، وإذا كنا نرى أن الحكمة تؤدي ما يؤديه المثل وإذا شاعت أصبحت معرفة المرسل عكس المثل الذي سيشرط المشابهة.

إن المصادر الأدبية والتاريخية قد سجلت عددا كبيرا من حكمهم، وخلدت ذكراهم فصاحب البيان والتبيين يذكر مجموعة من الحكماء القدماء أمثال: لقمان بن عاد، ولقيم بن كلاب، وأكثم بن صيفي، قس بن ساعدة، قصي بن كلاب، ربيعة بن حذار، هرم بن قطبة، عامر بن الظرب³.

إن الدارس لأشعار الجاهليين يجد بعض أبيات الحكمة المتناثرة في القصائد ومن بين الحكم النثرية نذكر⁴: "رَبِّ عَجَلَةٍ تَهْبُ رَيْثًا"، "وَرُبَّ رَيْثٍ يَعْقِبُ فَوْتًا"، و"رُبَّ أَخٍ لَمْ تَلِدْهُ

1- ينظر: هاشم صالح مناع، النثر في العصر الجاهلي، ص.162.

2- ينظر: علي بن محمد بن حبيب الماوردي، وزارة الوطن للنشر، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط.1، 1999م، ص.23.

3- ينظر: هاشم صالح مناع، النثر في العصر الجاهلي، ص.163.

4- ينظر: المرجع نفسه، ص.163.

أُمُّكَ"، و"رَبُّ ابْنِ عَمِّ لَيْسَ بِابْنِ عَمِّ"، و"رُبُّ فَرْحَةٍ تَعُودُ قَرْحَةً"، و"رَبُّ مَلُومٍ لَا ذَنْبَ لَهُ"، و"رَبُّ قَوْلٍ أَشَدُّ مِنْ صَوْلٍ"، و"رِضَا النَّاسِ غَايَةٌ لَا تُدْرَكُ".

ومن الحكم الشعرية¹:

وَمَنْ هَابَ أَسْبَابَ الْمَنَايَا يَنْلَنُهُ وَلَوْ نَالَ أَسْبَابَ السَّمَاءِ بِسَلَمٍ
وَمَنْ يَغْتَرِبُ يَحْسِبُ عَدُوًّا صَدِيقَهُ وَمَنْ لَا يُكْرِمُ نَفْسَهُ لَا يُكْرَمُ
وَمَهْمَا تَكُنْ عِنْدَ امْرِيٍّ مِنْ خَلِيقَةٍ وَإِنْ خَالَهَا تَخْفَى عَلَى النَّاسِ تُعَلِّمُ
أَرَى الْعَيْشَ كَنْزًا نَاقِصًا كُلَّ لَيْلَةٍ وَمَا تَنْقُصِ الْأَيَّامُ وَالِدَهُرُ يَنْفَذِ

ولا يفوتنا أن نعطي بعض الأمثلة، وهي عبارة عن أجزاء من أبيات شعرية، وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على مقدرة الشاعر الذي استطاع أن يضمن بيته الذي يقوم على جزء من هذا البيت: يقول ابن رشيقي: سئل حماد الراوية: بأي شيء فضل النابغة؟ فقال: إن النابغة وإن تمثلت بيتا من شعره اكتفيت به، مثل قوله:

حَلَفْتُ فَلَمْ أَتْرُكْ لِنَفْسِكَ رَيْبَةً وَلَيْسَ وَرَاءَ اللَّهِ لِلْمَرِّ مَذْهَبُ

وتمام البيت:

وَلَسْتَ بِمُسْتَبَقٍ أَخَا لَا تَلْمُهُ عَلَى شَعَثِ أَيُّ الرِّجَالِ الْمُهْدَبِ²

ونختم أمثالنا بثلاث حكم ضمنها "زهير بن أبي سلمى" في بيت واحد، فيقول:

وَفِي الْحِلْمِ إِدْهَانٌ وَفِي الْعَفْوِ دُرْبَةٌ وَفِي الصِّدْقِ مَنَاجَاةٌ مِنَ الشَّرِّ فَاِصْذُقْ

إن مجمل الحكم التي عرضناها سواء أبياتا شعرية، أو جملا نثرية كلها عبارة عن جمل رصينة توفر فيها إيجاز اللفظ وإصابة المعنى، فهي تعبر عن تجارب الحكماء وخبراتهم، فهي توجه المجتمع إلى الأفضل، فميزة الحكمة أنها لا يهمها الزمان أو المكان الذي قيلت فيه لأنها ممكن أن تتعرض إلى التحريف أو التغيير أو التبديل، ولكن تبقى منها واحدة وهي

1- هاشم صالح مناع، النثر في العصر الجاهلي، ص.164.

2- ينظر: المرجع نفسه، ص.165.

بناء حضارة مقدمة تتسم بالفضيلة والرقي وتطور الحضارة وما يرافقها من التطور اللغوي وتطور تجارب الفكر الإنساني والخلقي¹.

2- الأمثال:

الأمثال عند كل الشعوب مرآة صافية لحياتها، تنعكس عليها عادات تلك الشعوب وتقاليدها وعقائدها، وسلوك أفرادها، ومجتمعاتها، وهي ميزان دقيق لتلك الشعوب في رقيها وانحطاطها وبؤسها ونعيمها، وآدابها ولغاتها، وقد وصفها "ابن عبد ربه" في كتابه "العقد الفريد" بأنها: «وشي الكلام وجوهر اللفظ، وحلى المعاني، والتي تحيّرهما العرب، وقدمتها العجم، ونطق بها كلّ زمان وعلى كل لسان. فهي أبقى من الشعر، وأشرف من الخطابة، لم يسر شيء مسيرها، ولا عمّ عمومها، حتى قيل: أسير من مثل»².

فالمثل مأخوذ من المثل: «وهو قول سائر يشبه به حال الثاني بالأول والأصل فيه التشبيه»، ويقول ابن السكيت: «المثل لفظ يخالف لفظ المضروب له، ويوافق معناه، معنى ذلك اللفظ يشبهوه بالمثل الذي يعمل عليه غيره»، ومن خلال هذين القولين نستخلص تعريف بسيط للمثل، فالمثل هو قول شائع بين الناس يشبهون به حالة معاصرة بحالة قديمة أطلق فيها هذا المثل، ويتسم بالقبول ويشتهر بالتداول³.

قد ذكر ابن رشيق في كتابه "العمدة": أن أفضل الأمثال وأودزها وأحكمها وأصدقها هي الأمثال العربية، فقد تأتي طويلة ومحكمة ويتلوها أفصح الفصحاء من الناس، وقد تكون من القرآن الكريم مثل قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾⁴، وقوله عز وجل: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ

1- ينظر: هاشم صالح مناع، النثر في العصر الجاهلي، ص.ص. 166-167.

2- ابن عبد ربه، العقد الفريد، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى، 1404 هـ، ج.3، ص.3.

3- ينظر: هاشم صالح مناع، النثر في العصر الجاهلي، ص.169.

4- سورة العنكبوت، الآية 41.

فَكَفَّرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ¹، وقوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاستَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ²، إلى آخره من الأمثال، فالأمثال كثيرة التي ضربها الله سبحانه وتعالى للناس، موضحة منافع هذه الأمثال في متصرفاتها وحسب مواقعها، وهذا ما أكده الكاتب المارودي حين عرف المثل فقال: «لها من الكلام موقع الاستماع والتأثير في القلوب، فلا يكاد المرسل يبلغ مبلغها، ولا يؤثر تأثيرها، لأن المعاني لها بها لائحة، والشواهد بها واضحة، والنفوس بها وامقة، والقلوب بها واثقة، والعقول لها موافقة، فلذلك ضرب الله الأمثال في كتابه العزيز، وجعلها من دلائل رسله وأوضح بها الحجة على خلقه، لأنها في العقول معقولة، وفي القلوب مقبولة»³.

لقد أورد مؤلفنا قولاً لأبي الهلال العسكري يتحدث فيه عن أمثال العرب في الجاهلية فيقول: «ولما عرفت العرب أن الأمثال تتصرف في أكثر وجوه الكلام، وتدخل في جل أساليب القول، فأخرجها في أقواها من الألفاظ، ليخف استعمالها، وسيهل تداولها، فهي من أجلّ الكلام وأنبه، وأشرفه وأفضله، لقلة ألفاظها، وكثرة معانيها»⁴.

أما السيوطي فقد أورد قول يوضح فيه المثل أو بصياغة أخرى: فهو يعرف المثل في قول وجيز يقول: «المثل ما تراضاه العامة والخاصة في لفظه ومعناه حتى ابتدلوه فيما بينهم وفأهوا به في السراء والضراء واستدروا به الممتنع من الدر ووصلوا به إلى المطالب القصية

1- سورة النحل، الآية 112.

2- سورة الحج، الآية 73.

3- المارودي، الأمثال والحكم، وزارة الوطن للنشر، الرياض، المملكة العربية السعودية، 1420هـ-1999م، ط.1، ص.21.

4- هاشم صالح مناع، النثر في العصر الجاهلي، ص.170.

وتفرَّجوا به عن الكرب والمكربة وهو من أبلغ الحكمة لأنَّ الناس لا يجتمعون على ناقص أو مقصّر في الجودة أو غير مبالغ في بلوغ المدى في النَّفَّاسة»¹.

شروط استخدام الأمثال:

إن في الأمثال العربية دلالات واضحة تدل على الأمة العربية، ولاسيما في العصر الجاهلي، فهي تكشف عن طبيعة هذه الحياة، وتُجلي كثيرا من مظاهرها التي لم يهتم بها الشعر كثيرا، وأعني بذلك الحياة المعاشة اليومية التي يزاولها الغني والفقير، والرجل والمرأة من أعمال وحرف، وما يتصل بهما من أدوات وآلات، فالأمثال هي لغة العرب في الجاهلية² لذلك نشرها وتداولوها ووضعوا لها شروطا، ومن أهم هذه الشروط نذكر:

1- الأمثال لا تتغير بل تجري كما جاءت، وهذا شرط من شروطها، أي أن المثل يبقى كما هو عليه في الأصل.

2- ومن شروطه أيضا أن يكون يرضي العامة والخاصة من الناس في لفظه ومعناه، مما يسهل تناقله فيما بينهم، ويتفوهون به في السراء والضراء، وهو بذلك من أبلغ الحكمة ويقال: "إن الأمثال حكمة العرب في الجاهلية والإسلام".

3- تجتمع أربعة أمور في المثل لا تجتمع في غيره من الكلام وهي: إيجاز اللفظ، إصابة المعنى، حسن التشبيه، وجودة الكناية، فهو نهاية البلاغة.

4- إن المثل يكون إما شعرا وإما نثرا، وقد امتلأت المصادر على اختلاف أنواعها بالأمثال فمن يرجع إلى الخطب والوصايا التي أوردناها سابقا نجد أنها قد ضمت الكثير من الحكم والأمثال³.

1- جلال الدين السيوطي، المزهرة في علوم اللغة وأنواعها، تح. فؤاد علي منصور، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى، 1418هـ 1998م، ج.1، ص.374.

2- عبد الحميد قطامش، الأمثال العربية دراسة تاريخية تحليلية، دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر، دمشق، سوريا، 1408هـ- 1988م، ط.1، ص.7.

3- ينظر: هاشم صالح مناع، النثر في العصر الجاهلي، ص.171-172.



الأمثال النثرية¹:

أ/ "تجشأ لقمان من غير شبع": وهذا المثل يضرب للرجل الذي يُظهِرُ الغنى وهو فقير والجلد وهو ضعيف وأصله في الرجل يتجشأ على جوع.

ب/ "رجع بخفِّي حُنَيْنٍ"، ويقال: "أخيب من حُنَيْنٍ": ويضرب هذا المثل للشخص الذي يخلف بمواعيده.

ج/ "مواعيد عرقوب" ويقال: "أخلف من عرقوب": ويضرب هذا المثل للشخص الذي يخلف بمواعيده.

د/ "استنوق الجمل": وهذا المثل يقال عندما يكون الرجل واهن الرأي المخلِّط في كلامه.

هـ/ "اليوم خمر وغدا أمر": ومعناه: أنه اليوم استرسال وهو، وغدا الجد والتشهير.

و/ "أصلح غيث ما أفسده برِّدُه": ويضرب لمن يكون فاسدا ثم يصلح.

ي/ "من استرعى الذئب ظلَّم": يضرب لمن ولى غير الأمين.

ومن الأمثال الشعرية نذكر:

وَمَنْ يَصْنَعِ الْمَعْرُوفَ فِي غَيْرِ أَهْلِهِ	يُلَاقِ كَمَا لَاقَى مُجِيرُ أُمِّ عَامِرٍ
إِذَا قَالَتْ حَذَامٌ فَصَدَّقُوهَا	فَإِنَّ الْقَوْلَ مَا قَالَتْ حَذَامٌ
أَبَا مُنْدِرٍ أَفْنَيْتَ فَاسْتَبَقِ بَعْضَنَا	حَنَائِكَ بَعْضُ الشَّرِّ أَهْوَنُ مِنْ بَعْضِ
وَهَلْ يُنْبِتُ الْحَطِيَّ إِلَّا وَشَيْجُهُ	وَتُغْرَسُ إِلَّا فِي مَنَابِتِهَا النَّخْلُ ²

ومن أنصاف الأبيات وأجزاؤها التي تضرب مثل³:

- "شنشنة أعرِفُهَا من أَخْزَمَ": يضرب مثلا للرجل الذي يشبه أباه.

- "كانه علم في رأسه نار": يضرب مثلا في الشهرة.

1- ينظر: هاشم صالح مناع، النثر في العصر الجاهلي، ص. 172-174.

2- ينظر: المرجع نفسه، ص. 175.

3- ينظر: المرجع نفسه، ص. 176-177.



- "أوردها سعد وسعد مُشْتَمِلٌ": يضرب مثلاً لإدراك الحاجة بلا تعب ولا مشقة، ويقال: يضرب للرجل يقصر في الأمر إيثار للراحة على المشقة.
ملاحظات حول الحكم والأمثال:

لقد اجتمع كل من الأمثال والحكم في بعض الميزات والتي نذكر منها¹:

1/ تمايز كل منهما بالإيجاز وقوة المعنى وسهولة تداوله وانتشاره وهما من أبقى الفنون الأدبية.

2/ هناك تمايز واضح بين الحكمة والمثل، فالحكمة تصدر عن إنسان حكيم ويقصد بها توجيه المجتمع إلى الكمال والرقي، وهي غير مرتبطة بقصة أو حكاية، أما المثل فعكس ذلك فهو مرتبط بقصة أو حادثة ما، وهو يصدر عن عامة الناس.

إن باحثنا في نهاية هذا الفصل يطرح إشكالا مهماً ألا وهو كيفية التمييز بين الحكمة والمثل، وهل تستطيع الحكمة أن تصبح مثلاً، والعكس صحيح، ولكنه فصل بينهما حيث قال: إن الحكمة هي حكمة وإن شاعت وتناقلها الناس، وربما نسمع البعض يطلق حكمة في موقف معين على أنها مثلاً يتخاصم شخصان ويتلفظان بكلمات قاسية وجارحة فيقول: "كَلِّمُ اللسان أنكأ من كلم السنان"، وهنا ارتبطت الحكمة بالمثل في الموقف الذي قيلت فيه ولكنها تبقى حكمة، أما المثل فهو نوع من العلم المنفرد بنفسه ولا يقدر على التصرف فيه إلا من اجتهد في طلبه حتى أحكمه، ولكن ليس كل ما نجده في كتب الأمثال هي أمثال لأنها أحيانا تكون فيها حكم وتكون مختلفة فيما بينها².

يقول عبد المجيد قطامش بعد التعرف على مفهوم كل من الحكمة والمثل نستطيع أن نفرق بينهما، ونلمح هذا في عدة فروق نلخصها فيما يلي³:

1- ينظر: هاشم صالح مناع، النثر في العصر الجاهلي، ص. 177-178-179.

2- ينظر: المرجع نفسه، ص. 178-179.

3- ينظر: عبد المجيد قطامش، الأمثال العربية دراسة وتحليل، ص. 18.



- 1- إن المثل أساسه التشبيه، أعني تشبيهه بمورده، وأما الحكمة فعمادها إصابة المعنى ولا يراعى التشبيه فيها إلا حين تصبح مثلاً، وهذا الفرق يمكن أن نستنبطه من معنى كل من المثل والحكمة لغويا واصطلاحيا.
- 2- أن أسلوب المثل دائماً موجز، عكس أسلوب الحكمة الذي قد يطول نسبياً.
- 3- إن الهدف من المثل الإحتجاج، ومن الحكمة التشبيه والإعلام والوعظ.
- 4- أما المثل يصدر عن جميع الناس، بمختلف طبقاتهم الفكرية والاجتماعية، أما الحكمة فلا تصدر إلا عن حكيم فيلسوف أو أضرابهما.

عَرَضٌ وَتَقْدِيمٌ

الفصل

السادس: خصائص

النثر الجاهلي





الفصل السادس خصائص النثر الجاهلي

لقد عنون مؤلفنا فصله الأخير بخصائص النثر الجاهلي، ولكنه لم يطول فيه، بل قدم لنا موجزا عن هذه الخصائص.

إن النثر الجاهلي هو المرآة الصادقة المعبرة عن مظاهر الحياة العربية، وعن عاداتهم وتقاليدهم، فهو يعكس بيئات العرب بشتى أنواعها بطريقة عفوية غير متكلفة لا زيف ولا خداع فيها.

فمعظم تلك النصوص التي وصلتنا من النثر الجاهلي يمكن أن نعتبرها سجل حياة للعرب في العصر الجاهلي، فهي تتحدث بالتفصيل عن القيم الاجتماعية والمثل العليا التي تربي عليها العرب، كما أنها توضح التوجهات الفكرية والصراعات والتصورات الدينية والاجتماعية والسياسية المنتشرة في أرض الجزيرة العربية.

وبالرغم من هذا إلا أن الكثير من الباحثين يرون أن ما وصل إلينا من النثر كان أقل شأنًا من الشعر، ومرد ذلك إلى¹:

1- أن العرب في الجاهلية كانوا أميين لا يكادون يقرءون أو يكتبون، فكانوا يعتمدون في رواية الأدب من نثر وشعر على المشافهة والاستظهار، والذاكرة أقدر على حفظ الشعر وروايته من حفظ النثر وروايته.

فإن ما للشعر من أوزان راقصة، ونغمات موسيقية، وقوافٍ متزاوجة، وجرس عذب مثير، يعين على استذكاره واستظهاره، والنثر ليس بهذه المثابة، فالنثر إذن يتطلب معرفة الكتابة وهي اختراع متأخر.

1- عبد الله عبد الجبار ومحمد عبد المنعم خفاجي، قصة الأدب في الحجاز، مكتبة الكليات الأزهرية، مصر، د.ط، د.ت، ص.ص. 243-244.

ينظر: هاشم صالح مناع، النثر في العصر الجاهلي، ص.ص. 183-185.



2- لم يستطع النثر منذ أن أطل برأسه إلى الحياة أن يباري الشعر في عهد الجاهلية، وأن يقوى على معالجة الموضوعات التي عاجلها الشعر، فقد كان الشعر ديوان العرب؛ سجلوا فيه حروبهم وأخبارهم وعاداتهم وعقليتهم، ودَوَّن فيه الشاعر ما رأى وما شعر، ومزج فيه الحياة التي حوله بمشاعره، وكان الشاعر لا يمتدح منه للقبيلة إلا و يعلن مناقبها ويذود عن حياضها ويدافع عن شرفها ويحمي حماها، وكان الشعر في الحرب كموسيقى الجيش تثير في النفوس الميل للقتال وتبعث على الإستبسال، أما موضوعات النثر فلم تك بهذه المثابة، فعني الناس بحفظ الشعر ولم يعنوا بحفظ النثر.

3- النثر وليد العقل وسعة الثقافة، والشعر وليد الخيال، والأمة في بادئ أمرها خيالها أكبر من عقلها، ويمتاز النثر الحجازي بمساوقته للطبع وجريانه على الفطرة، فليس فيه تكلف ولا تطرف ولا غلو، ينزع عن قوس البادية، ويمتدح من ينابيع البيئة، ومن ثم فقد جاء قوي اللفظ متين العبارات فحل الأسلوب قصير الفقرات قريب الإشارة.

فبعد أن تفحصنا النصوص التي عرضها الكتاب واخترنا منها مجموعة متميزة وقمنا بدراستها وتحليلها أمكننا أن نقسم خصائص النثر الفني إلى خصائص معنوية وخصائص لفظية:

1- الخصائص المعنوية:

يمكننا أن نجمل الخصائص المعنوية فيما يلي¹:

1- النهج الذي سارت عليه النصوص النثرية: إن النهج يختلف من النصوص النثرية إلى القصائد الشعرية، فالخطيب عند كتابته نص نثري فهو لا ينتقل من موضوع إلى آخر مثل ما يفعل الشاعر في قصائده، بل يحافظ على موضوع واحد دون مقدمات مطولة، فمثلا في سجع الكهان يستعرض الكهان مقدرتهم اللغوية ويستخدمون الألفاظ المتعلقة بعناصر البيئة والحياة لإقناع السامعين والتأثير عليهم، بالرغم من أن بعض النصوص لا يكون فيها ترابط، وذلك بسبب كثرة الأمثال والحكم.

1- ينظر: هاشم صالح مناع، النثر في العصر الجاهلي، ص. 183-185.



2- توظيف الشعر في النصوص النثرية: لقد أثبت الخطباء وبجدارة مقدرتهم الفنية في الكتابة وإظهار مواهبهم الفذة التي نمت على إحساس عميق بتأثير النظم، فهو أقرب إليهم من النثر، فالخطيب يجد نفسه عاجزا عن إيصال فكرته بالنثر، لذلك لجأ إلى الصياغة الشعرية، التي تكون أكثر تعبيراً، وتعطي المجال للخطيب للانتقال من أسلوب إلى آخر، مما يساعد على جذب انتباه السامع، وبذلك يستطيع الخطيب أن يبرر مهارته وقوة براعته من خلال هذا التوظيف.

3- قدرة الخطيب على ارتجال خطبته، وقوة فطرته وموهبته التي تقوم على طبيعته البدائية البدوية، يقول الجاحظ في "البيان والتبيين": «وكلّ شيء للعرب فإنما هو بديهية وارتجال، وكأنه إلهام، وليست هناك معاناة ولا مكابدة، ولا إحالة فكر ولا استعانة، وإنما هو أن يصرف وهمه إلى الكلام... فتأتيه المعاني إرسالا، وتثال الألفاظ انثيالا، ثم لا يقيدده على نفسه، ولا يدرسه أحدا من ولده. وكانوا أميين لا يكتبون، ومطبوعين لا يتكلمون»¹.

4- التلميح لا التصريح: يستخدم الخطيب بالتلميح لإيحائه وقوته كأن يكنى بعبارة دون اللجوء إلى ذكر التفاصيل فيها، وهذا ما أكثره "قس بن ساعدة" في خطبته.

5- كثرة استخدام الحجج الدامغة والبراهين القاطعة والطريقة المنطقية وتعتمد الواقعية والبعد عن الخيال.

6- كثرة استخدام الحكم والأمثال، لأن طبيعة الأدب تختلف عن طبيعة الأنواع الأدبية الأخرى، حيث نجد أنها تنطلق من خبرة طويلة وتجربة عميقة حسب اتصالها بالموضوع، فبالرغم من أنها مفككة في ترابطها إلا أنها متصلة بأهدافها.

يمثل النثر الحياة العربية في العصر الجاهلي تمثيلا صادقا، لا كذب فيه، ولا رياء، فهو يبرز الجانب الإيجابي والوجه الحسن والأصالة العربية التي تركز على مكارم الأخلاق من تواضع وكرم وصلة رحم والتحلي بالصبر واحترام الحياة الزوجية والإيمان بالقضاء والقدر، ومناصرة الضعيف، وإجارة المستغيث، والعفو عند المقدرة، والتزلف في كل الأمور إلى غيرها

1- الجاحظ عمرو بن بحر، البيان والتبيين، دار ومكتبة الهلال، بيروت، 1423 هـ، ج.3، ص.20.



من الأخلاق، فالأخلاق هي التي تعزز بها الأمم وترتكز عليها حضارة الشعوب¹، وهذا ما لاحظناه من خلال عرضنا للموضوعات الكثيرة في النثر.

لم يُكْتَب للنصوص النثرية التي وصلتنا البقاء، إلا أنها نبعت من عاطفة صادقة تفاعلت مع الصفاء الذهني، ومن هنا جاءت المزاجية بين عمق الفكر وقوة الإحساس، وقد طبعت هذه المزاجية ألفاظ النثر وعباراته بخصائص لفظية متميزة².

كما يوضح "علي الجندي" أن كل تجاربهم موجودة في النثر لديهم وبالتحديد في حكمهم، حيث يقول: «وأما خبراتهم بالحياة وثمرات تجاربهم، فقد أودعوها في حكمهم التي تكون في العادة ذات ألفاظ قصيرة ولكن معانيها كثيرة وقد سبق أن أشرنا عند الكلام عن النثر الجاهلي أن الحكم تأتي نثرًا وتأتي شعراً، وهي في النثر أكثر، ولذلك تحدثنا عنها هناك. وهي في الشعر تأتي منتثرة في ثنايا القصائد حينما تحين الفرصة المناسبة لها في سياق الكلام وقد سبقت لها نماذج كثيرة في المعلقات، وفي الأمثلة الشعرية التي ذكرناها فيما سبق. ومن ينظر فيها يجد أنها مستقاة من بيئتهم وحياتهم ونظراتهم في الحياة وفي الناس، وهي تدل من ناحية على صدق إحساسهم ودقة ملاحظاتهم، كما أنها تدل من ناحية أخرى على مقدرتهم الفنية القوية في التعبير والتصوير»³. بالرغم من أن بعض مؤرخي الأدب يجمعون «على عدم صحة شيء منها، وإنما تصل إلينا بطريقة ثابتة أو مرجحة حتى يمكن الاطمئنان إليها من الناحية العلمية، وجعلها وسيلة ترسم لنا صورة النثر الجاهلي وتعين لنا أساليبه وخصائصه وفنونه. ولعلمهم متفقون كذلك على أن السبب في عدم الثقة بهذه النصوص هو أن وسائل التدوين التي تحفظ الآثار الأدبية لم تكن ميسرة في ذلك العصر، إذ إن العرب آن ذاك لم يكونوا يعرفون الكتابة. وهم على فرض معرفتهم لها لم يستخدموها في تدوين آثارهم الأدبية، بل استخدموها في أغراضهم السياسية والتجارية. ثم إذا كان النثر

1- ينظر: هاشم صالح مناع، النثر في العصر الجاهلي، ص. 187.

2- ينظر: المرجع نفسه، ص. 189.

3- علي الجندي، في تاريخ الأدب الجاهلي، ص. 437.



بطبيعته لا يساعد على حفظه وبقائه في الذاكرة، لخلوه من روابط، الوزن والقافية التي تساعد على الحفظ كالشعر مثلاً، وكانت الشقة بعيدة بين الجاهليين والعهد الذي دونت فيه الآثار التي تسبب إليهم»¹.

2- الخصائص اللفظية:

يمكن أن نجملها فيما يلي²:

- 1- إنه كامل في صياغته تام في تراكيبه، خال من الحشو، بعيد عن الإطناب، عميق في مدلوله، سهل التناول.
- 2- انقطاع الصلة بين الجمل لاسيما في الحكم والأمثال، لأن طبيعة الموضوع تتطلب ذلك.
- 3- غرابة بعض الألفاظ لكنها سهلة قريبة التناول، فالخطيب يلجأ إليها حتى يترفع عن اللغة اليومية الدارجة إلى لغة فنية سامية، تحدث في النفس المتعة.
- 4- يمتاز أسلوبها بأنه موجز محكم رصين مركز لا مجال للحشو فيه والإطناب، لأنه يعتمد الحكمة وضرب المثل.

وغيرها من الخصائص اللفظية الذي تميز بها العصر الجاهلي، والكاتب ذكر 7 خصائص، إما نحن فاخترنا أن نذكر أربعة منها فقط.

أما "علي الجندي" فنجده أيضاً تطرق لخصائص النثر الجاهلي، وذلك في كتابه "في تاريخ الأدب الجاهلي"، حيث يقول: «وفي النثر الجاهلي ألفاظ وعبارات قد تبدو لنا غريبة. ولكن ذلك ليس لغرابتها في الأصل؛ ولكن لعدم استعمالنا لها، وفي بعض القطع الثرية تبدو السهولة في التعبير والمعنى بشكل واضح، ولا يجوز أن تكون هذه السهولة وحدها سبباً في الطعن في أصالة هذه النصوص، فليست السهولة متعارضة مع الأصالة الجاهلية، فكثير من النصوص

1- نادية عطا خميس، النثر الفني في عهد النبوة، مجلة القادسية في الآداب والعلوم التربوية، العراق، ع.1، مج.8، 2009، ص.132-133.

2- ينظر: هاشم صالح مناع، النثر في العصر الجاهلي، ص.188-190.



الجاهلية شعرية ونثرية، سهلة الأسلوب، وهي مقطوع بصحتها وأصالتها، وفي القرآن الكريم يتجلى الأسلوب السهل الواضح في كثير من آياته، بل في كل سورة من سوره بأكملها، وواضح جدا أن أصحاب النثر الجاهلي كانوا يعنون عناية ظاهرة بالألفاظ والعبارات فكانوا -على ما يبدو- يختارون ويدققون في الإختيار، ويظهر ذلك في القوة والجزالة والتنغيم الموسيقي الذي نراه في الجمل النثرية على اختلاف الأشكال والأساليب»¹، فالناقد يوضح لنا من خلال هذا القول أن صعوبة والألفاظ وسهولة المعاني ليستا سببا في الطعن في أصالة النصوص النثرية التي وصلتنا عن النثر الجاهلي.

ويحدد خصائص هذا النثر الجاهلي فيما يأتي²:

- 1- ففي جميع أنواع النثر الجاهلي نجد الرصانة والانسجام التام بين الكلمات والعبارات بعضها وبعض، كما تظهر الناحية الموسيقية ظهورًا تامًا في كل جملة.
- 2- ويغلب في النثر الجاهلي الميل إلى الجمل القصيرة وبخاصة في الحكم والأمثال.
- 3- كما كان يتخلل نثرهم، وبخاصة الخطابة، أبيات شعرية، فتضفي على الكلام جمالا، وروعة.
- 4- وفي النثر الجاهلي الوضوح والصرحة بحيث لا يحتاج إلى كد الذهن أو التعمق في الخيال، وليس هناك غموض إلا في سجع الكهان، وقد ذكرنا آنفًا أن الكهان كانوا يتعمدون الإبهام في سجعهم، فكانوا يقصدون إليه قصدًا.
- 5- وقد ورد في النثر بعض المحسنات البلاغية كالتشبيهات والاستعارات، والجناس؛ كما في "العدل" و"العدل" في "ليس من العدل سرعة العدل"؛ وكما في "قول" و"صول" في "رب قول أنفذ من صول".

1- علي الجندي، في تاريخ الأدب الجاهلي، ص. 272-273.

2- ينظر: المرجع نفسه، ص. 273.



فللنثر الجاهلي مميزات عديدة حسب قول "علي الجندي"، إذ نجد فيه الرصانة والانسجام، والموسيقى، وقد يحوي على أبيات شعرية، والنثر أغلبه جمل قصيرة، ويمتاز بالسهولة والوضوح في التعبير، وفيه الكثير من المحسنات والصور البيانية.

مكتبة البحث





قائمة المصادر والمراجع:

القرآن الكريم برواية ورش.

أ/ المراجع العربية:

1- ابن عبد ربه ، العقد الفريد، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى، 1404هـ، ج.3.

2- ابن منظور جمال الدين ، لسان العرب، دار صادر - بيروت، الطبعة: الثالثة - 1414 هـ، ج.11، ص.283.

3- أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، تح. مُحمَّد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، الطبعة: الخامسة، 1401 هـ - 1981 م، ج.1.

4- أبو منصور الثعالبي، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، دار المعارف - القاهرة، د.ط، د.ت.

5- أحمد أمين مصطفى، أدب الوصايا في العصر العباسي إلى نهاية القرن الرابع، مكتبة الأنجلومصرية، مصر، 1990م.

6- أحمد حسن الزيات، تاريخ الأدب العربي للمدارس الثانوية، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، الفجالة، القاهرة، د.ت.

7- أحمد زكي صفوت، جمهرة رسائل العرب في العصور العربية الزاهرة، المكتبة العلمية، ط.1، د.ت.

8- أحمد زكي مبارك، النثر الفني في القرن الرابع، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، مصر، د.ط، 2012م.

- 9- الإمام محمد أبو زهرة، الخطابة، أصولها تاريخها في أزهر عصورها عند العرب، دار الفكر العربي، الكويت، ط.2، 1980.
- 10- إميل ناصيف، أروع ما قيل في الوصايا، دار الجبل، بيروت، د.ط، 1999م.
- 11- الجاحظ عمرو بن بحر، البيان والتبيين، دار ومكتبة الهلال، بيروت، 1423 هـ، ج.3، ص.20.
- 12- جبور عبد النور، المعجم الأدبي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط.2، 1984م، ص.122.
- 13- جلال الدين السيوطي، المزهري في علوم اللغة وأنواعها، تح. فؤاد علي منصور، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى، 1418 هـ 1998م، ج.1.
- 14- حسين الشيخ، العرب قبل الإسلام دراسات في تاريخ الحضارات القديمة، دار المعارف الجامعية، الإسكندرية، مصر، د.ط، د.ت.
- 15- حسين عبد الجليل يوسف، الأدب الجاهلي قضايا وفنون، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط.2، 1443 هـ-2003م.
- 16- حنا الفاخوري، الجامع في تاريخ الأدب العربي - الأدب القديم-، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط.1، د.ت.
- 17- الشريف الجرجاني، التعريفات، تح. نصر الدين تونسي، شركة التصدير، القاهرة، مصر، ط.1، 2007م.
- 18- شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في النثر العربي، دار المعارف، القاهرة، مصر، الطبعة: الثالثة عشرة، د.ت.

- 19- شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي العصر الجاهلي، دار المعارف، القاهرة، مصر، د.ط، د.ت.
- 20- طه حسين، من حديث الشعر والنثر، مؤسسة هنداوي، مصر، ط.1، 1936م.
- 21- عبد الحميد قطامش، الأمثال العربية دراسة تاريخية تحليلية، دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر، دمشق، سوريا، 1408هـ-1988م، ط.1.
- 22- عبد الله عبد الجبار ومُحمَّد عبد المنعم خفاجي، قصة الأدب في الحجاز، مكتبة الكليات الأزهرية، مصر، د.ط، د.ت.
- 23- عبد المجيد قطامس، الأمثال العربية دراسة تاريخية تحليلية، ط.1، دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر، دمشق، سوريا، 1408هـ-1988م.
- 24- عثمان موافي، في نظرية الأدب من قضايا الشعر والنثر في النقد العربي، ج.1، ط.3، دار المعرفة الجامعية، مصر، 2000م.
- 25- علي الجندي، في تاريخ الأدب الجاهلي، مكتبة دار التراث، طبعة دار التراث الأول، بيروت، لبنان، 1412هـ - 1991م.
- 26- علي بن مُحمَّد بن حبيب الماوردي، وزارة الوطن للنشر، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط.1، 1999م.
- 27- عن هاشم صالح مناع، النثر في العصر الجاهلي، النثر في العصر الجاهلي، دار الفكر العربي، بيروت، لبنان، ط.1، 1993م.
- 28- قدامة بن جعفر، نقد الشعر، مطبعة الجوائب - قسطنطينية، الطبعة: الأولى، 1302هـ.

29- المارودي، الأمثال والحكم، وزارة الوطن للنشر، الرياض، المملكة العربية السعودية، 1420هـ-1999م، ط.1.

30- مُجَّد بدر معبدي، أدب النساء في الجاهلية والإسلام، مكتبة الآداب، مصر، د.ت.

31- مُجَّد مندور، الأدب وفنونه، الإدارة العامة للنشر، مصر، أغسطس 2006م، ط.5.

32- مصطفى السيوفي، تاريخ الأدب في العصر الجاهلي، الدار الدولية للاستثمارات الثقافية، القاهرة، مصر، د.1، 2008م.

33- ناصر أسد، مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية، دار المعارف، ط.5، د.ت.

د/ المجلات والدوريات:

34- نادية عطا خميس، النشر الفني في عهد النبوة، مجلة القادسية في الآداب والعلوم التربوية، العراق، ع.1، مج.8، 2009م.

هـ/ المواقع الإلكترونية:

www. Facebook.com/ hassam -35



نقد وتقييم:

1- مدى تطابق العنوان مع المتن:

من المهم أن نقف عند عنوان الكتاب لأنه العتبة الأولى، كما أن له قيمة خاصة في الدراسة السيميائية للكتاب، ويعتبر المفتاح السحري للولوج إلى عالم النص، فقد بما قيل "الكتاب يقرأ من عنوانه".

لقد وُقِّقَ الكاتب في اختيار عنوان الكتاب، فلفظة النثر في العصر الجاهلي هي جملة مستوفية لكل ما يوحي الكاتب في فصوله، فقد قام المؤلف بدراسة أقسام النثر من وصايا، خطب، أمثال ورسائل وحكم مستعينا بمؤلفات حديثة وقديمة - كما ذكرنا سابقاً-، فالعنوان ألم بالمتن واستوفى كل ما يندرج تحت العنوان.

إن مجال دراسة هذا الكتاب هو النثر الجاهلي فإذا أردنا أن نعرف النثر تعريفاً شاملاً فهو: «الكلام الذي لم ينظم في أوزان وقواف، وهو على ضربين: أما الضرب الأول فهو النثر العادي الذي يقال في لغة التخاطب، وليس لهذا الضرب قيمة أدبية إلا ما يجري فيه أحياناً من أمثال وحكم، أما الضرب الثاني فهو النثر الذي يرتفع فيه أصحابه إلى لغة فيها فن ومهارة وبلاغة، وهذا الضرب هو الذي يعنى النقاد في اللغات المختلفة ببحثه ودرسه وبيان ما مر به من أحداث وأطوار، وما يتميز به في كل طور من صفات وخصائص، وهو يتفرع إلى جدولين كبيرين هما: الخطابة والكتابة الفنية، - ويسمى بعضها بعض الباحثين باسم النثر الفني- وهي تشمل القصص المكتوبة كما تشمل الرسائل الأدبية المحبرة، وقد تسع فتشمل الكتابة التاريخية المنمقة»¹.

فالكاتب في كتابه ركز على النوع الثاني من النثر (النثر الفني) شارحاً لأدق تفاصيله متعمقاً في أقسامه، ممثلاً لنماذج من هذا النثر الفني، ونجده قد وقف إلى حد

1- شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في النثر العربي، ص.15.

بعيد - وإن كانت دراسته عبارة عن جمع لمعلومات والعودة إلى الكتب القديمة والحديثة - غير أن جهده يعتبر إثراء للباحث الراغب في التطلع وكشف حيثيات النثر الأدبي في تلك الحقبة (العصر الجاهلي)، أما عن العصر فإن الصراع قائم حول إمكانية وجود أو عدم وجود نثر في هذه الفترة.

إذا قلنا أن الأدب الجاهلي من أجود و أرقن وأبلغ ما كتب في الأدب العربي فهنا نحن لم نستثني وجود شعر فقط لأنه متفق عليه أن أبلغ الخطب أقيت في هذا العصر إضافة إلى الوصايا التي ألقاها الآباء وأسياد القوم، والرسائل التي كانت تتبادل... إلخ، ذلك ما وصل إلينا رغم صعوبة تناقله، وقد ذكرنا أننا أن النثر لا يحفظ كالشعر، فالشعر سلس على اللسان سهل الحفظ عكس النثر ذلك ما أدى إلى ضياع أغلبه.

2- الحكم على الكتاب في الحقل المعرفي الذي ينتمي إليه:

أشرنا سابقا وتحديدا في المدخل إلى أن الكتاب ينطوي تحت حقل الدراسات الأدبية النظرية، وهذا إن لم يصرح به الكاتب، لكن بعد تصفحنا لمضمون الكتاب يبرز لنا جليا من دراسته التحليلية الخطب والوصايا وطريقة شرحه وتفصيله حولها، كما أن المطلع على الكتاب يمكنه استنباط الحقول المعرفية للنثر الجاهلي التي ناقشها الكاتب في مؤلفه بالتفصيل.

أما الآليات المستعملة فقد اعتمد على آراء مجموعة من الباحثين في حقل النثر الفني كآراء المدافعين على وجود نثر جاهلي كشوقي ضيف وزكي مبارك، وأورد آراء النافين لوجود نثر جاهلي من أصله كطه حسين والسيد مرسية، واستشهد الكاتب لهذه الآراء بمجموعة من المؤلفات نذكر منها على سبيل التمثيل لا الحصر:

- 1- كتاب العصر الجاهلي لشوقي ضيف.
- 2- كتاب الأدب وفنونه لعز الدين إسماعيل.
- 3- كتاب مقدمة في النقد الأدبي لمحمد حسن عبد الله.
- 4- كتاب من حديث الشعر والنثر لطله حسين.



- 5- كتاب تاريخ الأدب العربي لشوقي ضيف.
- 6- روائع من الأدب العربي لهاشم مناع.
- 7- كتاب العمدة في محاسن الشعر وآدابه لابن رشيق القيرواني.
- 8- في الأدب الجاهلي لشوقي ضيف.
- 9- كتاب النقد الأدبي لأحمد أمين
وغيرها من المؤلفات.

3- إبراز الإضافة النوعية التي جاء بها المؤلف:

يعد كتاب النثر في العصر الجاهلي من الكتب الأدبية التي تميزت لغة الكاتب فيها بالوضوح والسهولة، كما أن أسلوبه بسيط.

لا يمكننا القول أن الكتاب مرجع رصين يقارن مع مؤلفات قديمة وحديثة أمثال مؤلفات طه حسين وشوقي ضيف، وغيرهم.

إذا يمكن الاختصار في أنه بحث يعود إليه الطالب والدارس ليبسط مسألة النثر ويطلع على خباياه، لكنه جهد متواضع لا ينافس العربي.

ما يحسب لـ"صالح مناع" أنه قام بخطوة لم يقم بها الكثير، إذ إنه أفرد عنوان النثر الجاهلي، وخصص له دراسة شاسعة، هذه الخطوة لم يسبقه فيها المؤلفون، حيث أننا نجد كتب بعنوان: "الأدب الجاهلي"، و"الشعر والنثر"، لكن هذا الكتاب خصص كاملاً لدراسة النثر الجاهلي وهذه هي الإضافة التي أثرى بها مؤلفنا المكتبات العلمية لتعتبر رصيذاً معرفياً.

4- الأخطاء المنهجية:

إن الأخطاء المنهجية غير موجودة، فالكاتب اعتمد التسلسل في عرضه لقضايا الكتاب عندما استهل الكاتب مؤلفه بمقدمة ثم تمهيد، تطرق فيه لمصطلح الجاهلية، ثم حدد فترة العصر الجاهلي، وفي الفصول مهد أولاً حول الأدب، عرّفه وبين أقسامه، ثم وضع قسميه: (الشعر والنثر)، وعرفهما ووضح الفرق بينهما، ثم انتقل إلى الدراسة

الأدبية وواصل في أجزاء كتابه لينتقل إلى الخطابة بدراستها ثم الوصايا ثم الرسائل، ثم الأمثال والحكم، ليختم كتابه بخصائص النشر الجاهلي، الخصائص كانت قائمة على استقراء ودراسة وتحليل، وأنهى كتابه بخاتمة.

اعتمد الكاتب خلال دراسته على المنهج التاريخي التحليلي، فموضوع كالنثر قديم يحتاج المنهج التاريخي ليدرس كما أن الكاتب قام بتحليل نماذج النثر مستعين أحيانا بالوصف، والأرجح أن الكاتب قد أصاب حين اختار هذا المنهج.

5- الانتقادات التي وجهت للكاتب والكتاب:

نعذر في هذه الجزئية إذ إنه أثناء بحثنا عن نقاد أو باحثين وجهوا النقد لصاحب هذا الكتاب أو تقييمه، لم نجد أي كتاب تطرق له، ولا مقال، ولا حتى شبكة أنترنت.

6- رأينا الشخصي:

يعد الكتاب من الكتب الأدبية التي تميزت لغة الكاتب فيه بالوضوح وألفاظه سهلة بسيطة، كما يعتبر الكتاب مرجعا مفيدا للطلبة الذين بدءوا حياتهم الجامعية، كما أنه يعتبر مرجعا معرفيا غنيا بالشروحات والتحليلات التي يحتاجها الراغب في التعرف على خبايا النثر العربي الجاهلي.

كما أن فكرة جمع وإثراء كل ما يتعلق بالنثر الجاهلي خطوة حسنة لما يمثله النثر العربي من حياة الإنسان العربي وأصالته التي تقوم على مكارم الأخلاق من عفة وتواضع وكرم.

خَاتِمَةٌ





ختاما نقول بأن الموضوع الذي تطرقنا إليه ألا وهو النثر في العصر الجاهلي لم يلقى الاهتمام الكافي من الكتاب ، لكن هاشم صالح مناع استطاع أن يعطي الأهمية الكبرى لهذا الموضوع ، وهذا ما استخلصناه من خلال دراستنا حيث توصلنا إلى النتائج التالية:

❖ يقسم الأدب إلى قسمين: المنظوم والمنثور، وقد ميز الكاتب بينهما .

❖ قام الناقد بتوضيح مدى الاهتمام الذي ناله الشعر الجاهلي، وكيفية وصوله إلينا، ويرجع ذلك إلى الرواية لأنهم حملوه ووضعوه وتناقلوه، أما النثر فلم يلق اهتماما مثل ما لقي الشعر، لأنه يخلو من الأوزان والقوافي التي تساعد على حفظه، وربما قلة المادة النثرية في العصر الجاهلي ترجع إلى ذلك.

❖ بالرغم من الإهمال الذي لقيه النثر إلا أن هذا لا يخفي حقيقة أنه كان حياة الإنسان العربي، ويمثل أصالته ومكارم الأخلاق.

❖ لقد تحدث الكاتب أيضا عن الخطابة والتي عدها فن من فنون النثر الجاهلي، إذ تقوم على مخاطبة الجماهير، وتعتمد على الإقناع والإشارة وتستعين بالخيال والبلاغة؛ فهي تتميز بعدة خصائص:

1- امتيازها بالنبرة الخطابية الهادئة التي تعتمد على التأمل، وسياسة الأدلة والبراهين للتأثير على السامع.

2- قدرة الخطيب على الارتجال في خطبته، وقوة فطرته وموهبته.

3- تخير الألفاظ حسب طبيعة الموضوع، وحياتها بأسلوب بسيط.

4- معظم الخطب إيجابية، كخطب الإرشاد والتوجيه، وإصلاح ذات البين...

5- توظيف الشعر الذي صدر عن موهبة فذة نمت عن إحساس عميق.

6- بروز عدة خطباء في هذا العصر وعلى رأسهم: قس بن ساعدة وابن الأکثم صيفي التميمي... وغيرهم.

❖ لقد خصص الباحث جزءا كبيرا من كتابه للوصايا، حيث ذكر لنا أربع وصايا، وقام بدراستها وتحليلها.

❖ الوصية هي عبارة عن نصح تؤثر فيه بمن تحب، وتكون من المرأة لابنتها مثل وصية أمامة بنت الحرث إلى ابنتها أم إياس، أو من الأب إلى ابنه، أو من الحاكم لعشيرته... إلخ، ففيها يودع الموصي خلاصة مبلغها خبرته بشؤون الحياة والناس.

❖ ذكر لنا "صالح مناع" في فصل الرسائل رسالتين، والرسائل حسبه تنظم أحوال الناس والخلافة كأن يكتب خليفة رسالة ويبعثها إلى ملك آخر لكي ينظموا شؤون الدولة.

❖ وتحدث في الفصل الرابع عن الحكم والأمثال والتي هي عبارة عن قول بليغ موجز، وهما خلاصة التجربة القاسية في الحياة وصوت العقل الواعي لكل تجربة يمر بها الإنسان، ومنطلقها عقل مترن تميز بالفطنة والذكاء.

❖ إن الحكمة والمثل مرتبطان ببعضهما ويشتركان في بعض الصفات فأحيان تكون الحكمة مثلا إذا قيلت في موقف يعبر عن تلك الحالة.

❖ وفي الأخير أنهى كتابه بخصائص النثر الجاهلي، التي يتميز بها الأدب الجاهلي عن بقية الآداب، فقد جمعها الباحثون والمختصون في عدة نقاط:

1- قوة الألفاظ.

2- صعوبة التراكيب.

3- العاطفة الطاغية.

4- الانتقال بين الأسلوب الخبري والإنشائي.

وفي الأخير نرجو أن يكون بحثنا هذا منارة لكل طلاب العلم.



ص	العنوان:
أ	مقدمة
	بطاقة الفنية للكتاب.
1	مدخل.
10	عرض وتقديم: دراسة كتاب النثر في العصر الجاهلي لهاشم صالح مناع
11	الفصل الأول: الأدب وأقسامه
22	الفصل الثاني: الخطابة
43	الفصل الثالث: الوصايا
61	الفصل الرابع: الرسائل
68	الفصل الخامس: الحكم والأمثال
79	الفصل السادس: خصائص النثر الجاهلي
87	نقد وتقويم
89	خاتمة
95	مكتبة البحث
100	الفهرس